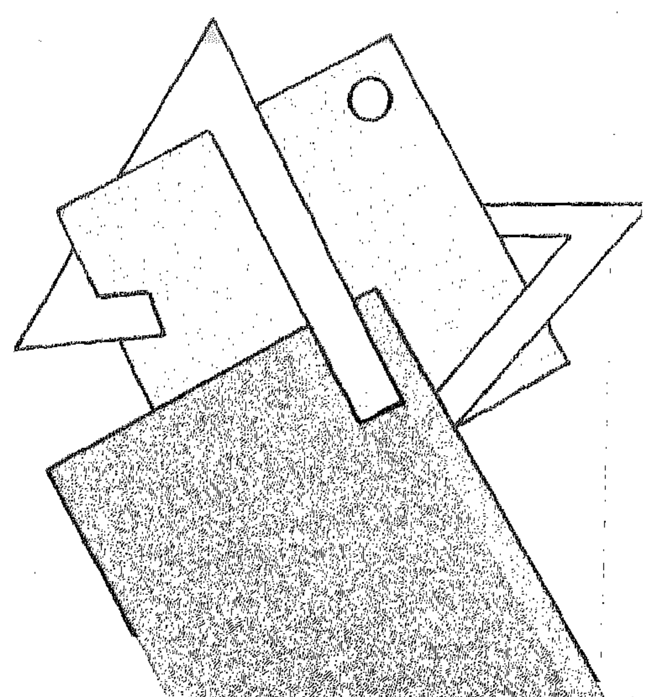
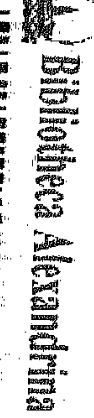
تيودور رايك

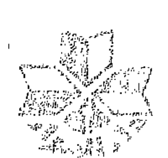
الدافع الجنسي

ترجمة: ثائر ديب






Bibliotheca Alexandrina
0147894



الدافع الجنسي

* الدافع الجنسي .
* تأليف : ثيودور رايك .
* ترجمة : ثائر ديب .
* جميع الحقوق محفوظة .
* الطبعة الأولى 1992 .
* الناشر : دار الحوار - اللاذقية ص ب 1018 - هاتف 22339
تيلكس 451086 Booth sy - سورية .

ثيودور رايك

الدافع الجنسي

ترجمة: ثائر ديب

المحتوى

إهداء المؤلف :

إلى ولدي آرثر

إهداء الترجمة :

إلى هالة . . .

مقدمة الترجمة العربية

« تراكمت الأدبيات التي تعالج مشكلات الجنس إلى حدٍّ بات فيه الباحث الذي يعتقد بقدرته على الاسهام في هذا الموضوع عاجزاً عن التحقق من أنَّ وجهة النظر ذاتها لم تُنشَر عدداً من المرات في السابق . وما من فرد واحد يمكنه معرفة كل المادة المطبوعة . لكن الهدف ليس الأسبقية وإنما الأصالة . وتبرز الصعوبة الكبرى عندما يحاول المرء أن ينسى في البداية كل ما قرأه أو سمعه من قبل ، وينظر في الظواهر كما لو أنه يواجهها للمرة الأولى ، دون أفكار مسبقة . »

من هذا المنطلق ، يباشر ثيودور رايك مقاربته سيكولوجيا العلاقات الجنسية ، دون أن تستعبده ، كما يقول ، علاقته السابقة الوثيقة بمدرسة التحليل النفسي الفرويدي . بل على العكس ، فإن مقاربته هذه تقوم ، أساساً ، على نقده الصارم لهذه المدرسة مقيماً صرح ما يطلق عليه اسم التحليل النفسي ـ الجديد ، والذي يعتبره رايك « ثورة في الثورة » .

وبصرف النظر عن صوابية رايك أو فرويد ، فإنه يبقى مثيراً ومثقِّفاً أن نرى تلميذاً لامعاً آخر من تلامذة فرويد المقرّبين يخرج على مدرسته ، مطوّراً ما يعتبره صائباً في هذه المدرسة ، وناقضاً ما لا يراه كذلك . ففي القسم الأول من هذا الكتاب نرى رايك ينهال بالنقد على نظرية اللبيدو الفرويدية بجرأة وإقدام نادرين ، وذلك من خلال مراجعة شاملة لكتاب فرويد الشهير **ثلاث مقالات في نظرية الجنسية** . ولكن النقد عند رايك « لا معنى له إنْ لم يكن بناءً وإنْ لم يقدّم شيئاً أفضل يحلّ محل المفهوم الخاطىء » ، وبالتالي فإننا نرى في هذا الكتاب تفسيراً آخر للجنسية الطفلية ، والانحرافات ، والتصعيد ، والعصاب ، وعقدة أوديب ، . . . الخ .

ومع ذلك فإن موضوع رايك الرئيسي ، والذي يشيده بحجارة النقد ، هو

التفريق بين الرغبة الجنسية والحب الرومانسي . وهكذا نراه يغوص في مجالات معقدة من الغرائز والانفعالات البشرية ، متتبعاً تيارات ثلاثة إلى منابعها المختلفة : الدافع الجنسي ، ودوافع الأنا ، والحب ، ومتقصياً اندغام هذه التيارات في دفقٍ واحد من السعادة ، أو انفصالها وتعارضها .

وفي سياق بحث رايك المثير في دوافع الأنا والدافع الجنسي والحب ، يجيب على الكثير من الأسئلة التي تواصل زرع الحيرة والبلبلة لدى رجال ونساء اليوم : ما هي علاقة الحب بالثقافة وتطورها ؟ أيمكن أن يكون ثمة إشباع جنسيٍ دون حب ؟ هل نتغاضى عن العلاقات الجنسية غير الشرعية ونعتبرها ميلاً سوياً عادياً ؟ هل ثمة ما يمكن أن ندعوه جنساً « أحادي الجانب » ؟ وليست هذه ، بالطبع ، إلا بعض الأسئلة التي يناقشها ويحللها المؤلف .

ويمكن قول الكثير عن أسلوب رايك الحواري الفريد ، وزخرفته كتابه بالنوادر والحكايا ، والمقبوسات الأدبية ، والحالات المرضية ذات الدلالة ، الأمر الذي جعل قراءة هذا الكتاب متعة كاملة ، فضلاً عن كونها تجربة في القراءة الغنية بمعلوماتها والقيّمة بأفكارها . إن رايك يقفز في حقول الأدب والفكر والتاريخ من زهرة إلى زهرة ، فينثر الأريج في كل ثنايا الكتاب ، لدرجة أن كثرة مقبوساته اضطرتنا ، بعد تردد ، إلى الاحجام عن إضافة هوامش لأعلام الأدب والفكر والشخصيات التاريخية والأسطورية الواردة أسماؤهم في هذا الكتاب ، وذلك حرصاً على عدم إثقال النص بهوامش كثيرة .

ولد ثيودور رايك في فيينا عام 1888 ، ودرس في جامعتها ، ونال شهادة دكتور في الفلسفة بعد أن قدّم أول أطروحة كُتبت عن موضوع التحليل النفسي . وتحضرنا هنا تلك المساجلة التي شهدها عام 1926 حول وجوب أو عدم وجوب صدور مرسوم ينظّم مهنة التحليل ويربطها بالسلك الطبي على نحو يغدو معه محرّماً على غير الأطباء ممارسة التحليل . وقد اتفق في العام نفسه أن أحد المرضى رفع أمام القضاء النمساوي دعوى على ثيودور رايك ، والذي كان وجهاً بارزاً في جمعية فيينا للتحليل النفسي ، وأحد المدعوين المواظبين إلى أمسيات الأربعاء التي كان فرويد يقيمها في بيته . ولم يكن رايك طبيباً بالطبع ، واتهمه الرجل بأنه استخدم معه « طرائق ضارة » . . . بيد أنّ الاختلال

العقلي السافر لرافع الدعوى ، وتدخل فرويد الخفي لدى أحد كبار الموظفين ، حالا دون تجريم رايك بتهمة « التدجيل » . وكانت ثمرة تلك المساجلة كتيب فرويد **مسائل في مزاولة التحليل النفسي** ، والذي يدافع فيه عن أنصاره من غير الأطباء ، وكان من بينهم ، فضلاً عن رايك ، كل من أوتورانك وميلاني كلاين .

والحال أنه تهمنا هنا الإشارة إلى أن فرويد يشهد في هذا الكتيب لأنصاره ، وفي مقدمتهم رايك ، بالتأهيل الممتاز وطول الممارسة والمران وقدرتهم الفائقة التي أظهروها في مزاولتهم التحليل[1] . بل وتشير بعض المصادر إلى أنّ فرويد وصف رايك بأنه « الرجل الذي يجسّم أملنا »[2] .

كان رايك ، في البداية ، واحداً من التلامذة المتعصبين لفرويد ، والذين حرص هذا الأخير على صلته بهم كل الحرص دون أن تفوته الإشارة إلى ذلك كلما سنحت الفرصة . فها هو يقول في كتابه **حياتي والتحليل النفسي** الذي صدر لأول مرة عام 1925 : « مقابل أولئك الذين هجروني ، من أمثال يونغ وأدلر وشتيكل ونفر قليل غيرهم ، لبث إلى جانبي عدد كبير من الرجال أمثال ابراهام وإيتنجون وفرنزي ورانك وجونز وبريل وساكس والقس بفستر وفان إمدن ورايك ، الخ ، يتعاونون معي منذ نحو خمسة عشر عاماً في إخلاص ووفاء ، فضلاً عن آصرة صداقة لم يعكر صفوها معكّر تربطني بأكثرهم . ولم أسمِّ هنا سوى أقدم تلاميذي ، أولئك الذين صار لهم اسم لامع في الأدب التحليلي النفسي . »[3] .

1) ـ فرويد ، مسائل في مزاولة التحليل النفسي ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة بيروت ، الطبعة الأولى 1981 ،انظر خاصة مقدمة المترجم وكذلك ص 80 .

2) ـ انظر : قضايا في التحليل النفسي ، مجموعة مؤلفين ، اختارها وترجمها بتصرف إميل خليل بيدس ، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ، الطبعة الرابعة 1982 ، ص 90 .

3) ـ فرويد ، حياتي والتحليل النفسي ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، الطبعة الأولى ، ص 72 .

وللدلالة على تزمّت رايك لفرويد في البداية يمكن ذكر كتابه الذي نشره سنة 1925 بعنوان وسواس الاعتراف والحاجة للعقاب ، والذي رأى فيه البعض ، مثل فيلهلم رايش ، مبالغة خطيرة في الافتراضات التي وضعها فرويد في عمله ماوراء مبدأ اللذّة ، والمتعلقة بغريزة الموت . ولقد أكّد رايك في هذا العمل على أنّ الميل الذي يحرك كل كائن حي هو العودة إلى العدم ، إلى المادة غير العضوية ، هذا التأكيد الذي بدا لفيلهلم رايش كريهاً ، إذْ كيف يمكن رؤية الحياة بمثابتها اضطراب من أجل السكون الأبدي ؟ ولماذا على الإنسان أن يتحرك بناءً على حاجة للعقاب الذاتي ؟ وهل يمكن أن نُرجع ذلك إلى قوة بدائية فطرية أم إلى نوع من التكوين اللاحق ؟[4]

ومع كل هذا فإن رايك انفصل لاحقاً عن فرويد دون أن يحول بينه وبين ذلك صداقة وثيقة أو تزمت قديم .

كتب رايك الكثير من المؤلفات في التحليل النفسي ، والأنثروبولوجيا ، والدين ، والأدب ، وغيرها من الحقول . ولعل الجانب الأهم من أعماله قبل انشقاقه عن فرويد هو الجانب الانثروبولوجي ،حيث يقول فرويد إن رايك ، ومعه عالم السلالات ج . روهايم ، « سلكا في أبحاث عديدة ومهمة لهما ، الطريق الذي شقّه الطوطم والتابو ، وقاما بتوسيعه وتعميقه أو تصحيحه »[5] . أما كتب رايك بعد انفصاله عن فرويد ، والتي يشير إلى بعضها في هوامش هذا الكتاب ، فهي محاولة لتأسيس مدرسته الخاصة ، التحليل النفسي ـ الجديد ، فإلى أي حدّ تمثّل نظرياته الخاصة افتراقاً هاماً ، وثورياً ، عن مبادىء فرويد ؟ هذا ما يمكن لهذا الكتاب أن يساعدنا في الإجابة عليه .

يبقى أن نشير أخيراً إلى إضافة بعض الهوامش كلما لزم الأمر مُشاراً إليها بعلامة (*) تفريقاً لها عن هوامش المؤلّف المرقمة ، وكذلك أن نشكر كثيراً من الأصدقاء

4) ـ ج . م . بالمية ، النظرية الفرويدية ـ الماركسية « فيلهلم رايش » ، ترجمة سناء نجيم ، دار القدس ، الطبعة الأولى 1974 ، ص 30 ـ 31 .

5) ـ حياتي والتحليل النفسي ، ص 93 .

الذين قرأوا المخطوطة وأغنوها بملاحظاتهم القيمة ، وفي مقدمة هؤلاء الصديق العزيز وديع ابراهيم الذي ترك على هذه الترجمة بصمات لا تمحى .

المترجم

سعياً وراء السعادة

لآخر مرة أقصد مقعدي المنعزل قبل أن أعود في الغد إلى نيويورك . هو لا يعدو أن يكون تلّة خفيضة لكنك ترقى إليها ببطء شديد حين تناهز الستين من العمر . يحلّ الأصيل باكراً هذا الأيام ، مع أننا لا نزال في الأسبوع الأول من أيلول . وهاهي بشائر الخريف في الهواء ، وأوراق الأشجار الصفراء ترفّ وتصطفق قرب مقعدي . الأغصان تهتزّ مع نسيم الأصيل . وما هي إلا ساعة حتى يخيّم الظلام ، والسكينة ، والبرودة . قمة الجبل من جهة الغرب تتوهج كما لو أن الشمس الآفلة أراقت دمها الحار فوقها . إنه فصل الفراق .

أسفل الطريق أرى جون وجين يمرّان والذراع في الذراع دون أن يتطلعا إلى أعلى . أحبُّ هذين الزوجين الفتيّين ، اللذين يقضيان شهر عسلهما . إنهما مبتهجان ولكن على نحو رصين . ومن الواضح أنهما سعيدان لدرجة أن كلّ من في الفندق يبتسم لمرآهما وقد علّق لاروش فوكولد مرّة أن الأمر مع الحب كما هو مع الشبح : « الكلّ يتحدث عنه ، وما من أحد رآه » . لكن ما يقوله الدوق الشكوك والمتحرر من السحر والأوهام ليس صحيحاً أبداً ، فرؤية آلاف عديدة من الأزواج على شاكلة جون وجين كفيلة بأن تقنعه بحقيقة الحب السيكولوجية . لكن لعله قصد شيئاً آخر . لعله نظر إلى الحب كشيء دائم ، بل وأبديّ . وعندها ، فإن مثل هذا المفهوم سيكون غير حكيم بالمرة بالنسبة لفيلسوف ودارس للطبيعة ألمعيّ مثله ؛ فحياة الحب القصيرة لا تنتقص من حقيقته . إنه حقيقي كالزهرة ، كالربيع ، كالشباب ، وكالحياة ذاتها . ولقد سمعت ذات مرة أغنية في موطن لاروش فوكولد تقول كلماتها :

La vie est vaine

Un peu d'amour

Un peu de haine
Et puis bon jour.(*)

بلى ، إنَّ رؤية جون وجين لكفيلة بأن تقنع المرء بالحب .

تُرى ما سرّ سعادتهما ؟ ينبثق السؤال لديك عفو الخاطر ، وكأنه طالع من أعماق خفية . وتجيب : « لا تكن ساذجاً ، إنهما في حالة حب » . وتقف عند هذا الحد ، فأنت لا تريد أن تجعل من نفسك ذاك الغبي بطرح المزيد من الأسئلة . ومع ذلك فإن ثمة مزيداً منها .

إن كون جون وجين في حالة حب لا يعني الشيء ذاته لأُناسٍ مختلفين ، فكلمة « حب » لها تشكيلة من المعاني . لكن لندع ذلك جانباً الآن . هل جون سعيد لأنه يحب جين ؟ هل هي حالة من الجنون المؤقت تلك التي تغمره بغبطة عارمة ؟ ولكن لا شك أنه سيكون أقلّ سعادة ـ بل وتعيساً ـ إن لم ترتّد عاطفته إليه . وإذاً ، فإن جون سعيد لأنه مُحِبّ ومحبوب . ومن الواضح أن الإشباع المتأتي من كل من هذين العاملين هو من طبيعة مختلفة . وتثبت المراقبة الذاتية البسيطة أن ثمة خاصية لحالة السعادة الناجمة عن شعور المرء بالحنان مغايرة لتلك الناجمة عن كونه موضوعاً للعاطفة . ففي أن تُحِبَّ إشباع لتوق شديد ، لرغبة ببذل الحنان ؛ أما في أن تُحِبَّ فتحقيق لغاية أخرى ، لرغبة الفرد في أن يكون مطلوباً ومرغوباً . وإذا كان حبّك للآخر ضرباً من المأثرة ، فإن حبّ الآخر لك هو المكافأة التي تنالها من أجل ذلك . ولما كان من الممكن لهذين الشعورين أن يوجدا مستقلين عن بعضهما ، فلابدّ أن يكونا مختلفين ، ولا بدّ من

---

*) ـ بالفرنسية في النص الأصلي :

عبث هي الحياة

قليل من الحب

قليل من البغض

ومن ثم صباح الخير .

تفريقهما سيكولوجياً . فأن تُحِبّ يعني أن تتوق إلى شخص ما ، أما أن تُحَبّ فيعني أن تروق لأحد ما وتلائمه . ومن الواضح أنّ للإشباع المتأتي من كونك موضوعاً لحنان شخص آخر طابع إرضاء الأنا . فهو مرتبط بمشاعر الغرور المُشْبَع ، والكبرياء المحقّقة ، والطموح المُدرَك . إنه ينفخ الأنا وينضاف إلى إحساس المرء بقيمته . أما أن تكون مُحِبّاً وحسب ، فمن الواضح أنها حالة ليس لها الميزات ذاتها . فالمُحِبّ يشعر عندها بالذلّ .

أن يكون المرء محبوباً ليس المكسب الوحيد الذي يناله الجانب الأنويّ في علاقة جون وجين ، كما أعتقد . فهنالك ، مثلاً ، شعور السلطة الذي يشعر به جون ، والإشباع العظيم الناجم عن حمايته لها ومساعدته إياها . وثمة لدى جين نزوعات مماثلة . فهي سعيدة لأنها مطمئنة إليه ويمكنها الوثوق به ، ولكنها سعيدة أيضاً لأن بمقدورها أن تؤثر عليه وتقوده . وثمة ، في الوضعية السيكولوجية لكلا الطرفين ، ميول إلى الهيمنة والتملّك اللطيفين أو الحاذقين متصلة بحبهما الشديد وتفانيهما ، ولكنها تعمل كمكابدات انفعالية مستقلة . فجون ينظر إلى جين باعتبارها الشخص الأعزّ لديه ، ولكنه في بعض الأحيان ينظر إليها باعتبارها مِلْكَهُ . وتنظر جين إلى جون على أنه لها ، لكنها تتصور أحياناً أنها هي التي له .

هل هذه هي الحاجات الوحيدة التي يتمّ إشباعها من خلال اتحاد جون وجين ؟ كلا بالطبع . فهما سعيدان أيضاً لأن رغباتهما الجنسية تتمّ تلبيتها . وهما سعيدان ليس لأن أحدهما يُحِبُّ الآخر وحسب ، بل لأنهما يعيشان سوية أيضاً . ولا شك أن الإشباع المستمدّ من هذا المصدر يختلف عن ذاك الناجم عن العاملين المذكورين آنفاً . فربما شعر جون بهذا الإشباع الخاص للجنس لدى نساء أخريات لا يحبّهن . وعلى الرغم من أن هذا الإشباع ليس له نفس العمق والإرضاء ، إلا أنه كان موجوداً وأسهم في سعادة جون ورفاهيته .

لقد قادنا التساؤل عما يجعل هذا الثنائي الشاب سعيداً إلى مصادر ثلاثة : الحب ، مكاسب الأنا ، والإرضاء الجنسي . وهي ثلاثة دوافع شديدة الاختلاف . وفي

حالة جون وجين ، تكون هذه الدوافع متحدة لدى كل منهما وموجّهة نحو شخص بعينه ، ولكن يمكن لها أن تتجه إلى موضوعات عدّة وأن تتواجد مستقلة ، كل منها يبحث عن هدفه الخاص . وفي لحظات الحب الأرقى تبدو هذه الدوافع الثلاثة ملتحمة وغالباً ما يتمّ الخلط بينها ، لكن التحليل السيكولوجي يبيّن أنها مختلفة على نحو واضح . فالجنس مقيّد إلى الجسد ، والحب إلى شيء غامض ندعوه الروح . ويهدف الجنس إلى الإرضاء الجسدي ؛ أما الحب فإلى إثراء الشخصية وتضخيمها ؛ وتهدف دوافع الأنا إلى تحقيق الانتزاع والسيطرة . الجنس حاجة بيولوجية ، أما الحب وحوافز الأنا فتبدو كمكابدات لها طابع شخصي أكثر مما للدافع الجنسي . ويبدو أيضاً أننا نميل إلى تقييم هذه الحاجات الثلاث على نحو متباين ، وكأنها منبثقة من مستويات مختلفة للطبيعة البشرية . فنحن نقيّم الحب عالياً أكثر من الجنس ودوافع الأنا . والعالم كله يحبّ المحب ، ولكن ما كل العالم يحبّ رجلاً لأنه يبتغي مصاحبة امرأة إلى الفراش .

تظهر لنا الآن سعادة جون وجين مؤسسة على توليفة Synthesis إشباعات من أنواع مختلفة : الدافع الجنسي ، حاجات الأنا ، والتوق الشديد للحب . وما يشعر به هذا الثنائي الشاب ليس سوى دفق واحد من السعادة ، لكن هذا الدفق ذاته هو نتيجة لاندماج تيارات عدّة . ونوّد في هذا الكتاب أن نتتّبع كل تيار إلى منبعه كي نتقصّى طبيعة الأنهار المختلفة التي تتحد طاقاتها في الظاهرة التي نبحث .

إن ما بدا بسيطاً في البداية يبدو الآن بالغ التعقيد . فما يدعوه الناس حباً هو في الواقع خليط من مكوّنات متنوعة جداً . ولقد مضى من الأعوام ما يقارب المئتين وخمسين منذ أن نَظَم سويفت قصيدته **كادينوس وفانيزا**والتي نقرأ فيها :

كيف ندعو الحبّ هوىً واحداً
وهو مؤلّف من الأهواء كلها ؟

إن الحقيقة المُعَبَّر عنها هنا ينبغي إعادة اكتشافها لأنها ضاعت . والسيكولوجي الحديث الذي يراقب جون وجين سوف لن ينكر أنهما في حالة حب ، ولكن لو سُئِل ما هو الحب ، فسوف يجيب دون تردد : « إنه شكل مكفوف الهدف من الحافز

الجنسي » . ولعل من الأفضل أن نبدأ من هذه النقطة ونباشر بحثنا الجديد بالسؤال ما هو الجنس ؟ فما الذي يمكن للسيكولوجيا أن تقوله لنا عن منشأ وطبيعة هذا الدافع الجبّار ؟

طبيعة الدافع الجنسي

ليس بمقدور السيكولوجيين أن يجيبوا على سؤال : ما هو الجنس[1] . فهذه إشكالية لا يمكنهم التنطّح لها . ولا بدّ من أن يضطلع بذلك علماء البيولوجيا ، والكيمياء الحيوية ، والفيزيولوجيا . وبقدر ما يمكن لنا أن نستنتج ، فإن الدافع الجنسي الخام crude sex – drive هو حاجة بيولوجية تمثّل الغريزة instinct ومشروط بتغيّرات كيميائية ضمن العضوية . ويعتمد الحافز urge على إفرازات داخلية ، وهدفه هو التخلص من توتّر فيزيائي . ويتمّ تفعيل التنبيهات الداخلية بالتغيرات الكيميائية التي تنزع إلى إحداث تفريغ discharge أو إطلاق release تمكن مقارنته بالإطراح . تلك هي طبيعة الدافع الجنسي الخام ـ لا شيء أكثر ، ولكن لا شيء أقلّ .

ما الذي يمكن للسيكولوجيا أن تقدّمه بصدد تقصّي هذا الموضوع ؟ إن البحث السيكولوجي في هذا الميدان هو بالضبط مثله في ميدان تظاهرات الجوع ، والعطش ، والإطراح ، وغيرها من الحاجات الحيوية . ومهمة السيكولوجيا الفيزيولوجية هي أن تصف الإحساسات الملحوظة تصنفها وأن تصف المشاعر المُلِذّة أو المؤلمة المُثارة من قبل هذه الإحساسات . ولقد سبق للسيكولوجي الألماني هـ . ريمك أن وصف المشاعر على نحوٍ ملائم بأنها « الجانب الأنويّ من الإحساسات » . إن سَبْر هذا الجانب هو المهمة المحددة تماماً للسيكولوجيا في هذا الميدان . ولنُضِفْ أن السيكولوجيا العلمية ليست مؤهّلة بعد لخوض غمار مثل هذا البحث . ذلك أنه ليس للسيكولوجيين أو المحللين

---

(1) ـ لسنا اليوم أكثر قدرة على تعريف الجنسية Sexuality مما كنا منذ عشرين عاماً مضت ، عندما قال فرويد لتلامذته : « لا تنسوا إنه ليس في حوذتنا ، في الوقت الراهن ، صفة مميّزة مقبولة ومُعْتَرف بها عموماًللجنسية . فالخصائص الكيميائية التي قد نتوقعها لا تزال تنتظر من يكتشفها » . (محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي) .

النفسانيين مما يتعدّى وصف وتصنيف المشاعر والإحساسات فيما يتعلق ببحث الدافع الجنسي الخام . فهذا الدافع تعبير عن حافز بيولوجي هو في شكله الأصلي بدئيّ وأوليّ شأن الجوع أو حاجة الإطراح . وطبيعة هذا الحافز في الأصل ليست أكثر تعقيداً من هذه الغرائز ، وأهميته السيكولوجية ليست أعظم من أهميتها ما دام يُبقي الدافع في شكله البدئي وغير المختلط . وهو لا يسترعي اهتمامنا كسيكولوجيين أكثر مما يسترعيه العطش مثلاً وهو نزوة impulse خام لا تقبل أي استخدام آخر . وإذا ما تحددت الصلات الجنسية بالدافع الجنسي الخالص وحده ، فإن كتاباً مثل هذا الكتاب عنوانه **سيكولوجيا العلاقات الجنسية** بالكاد تمكن كتابته .

ولا يبدأ التعقيد السيكولوجي إلا بعد أن يتضافر الدافع الجنسي أو يتعارض مع دوافع الأنا ego – drives تلك الحوافز الأقدم لدى الفرد . ولا تمتلىء الحاجة الجنسية بدلالتها العظيمة إلا باختلاطها مع دوافع غير جنسية . والمشكلة هي أننا حيثما نجد الدافع الجنسي ، أو بالأحرى تظاهراته ، يكون هذا الاختلاط موجوداً مسبقاً . ولا شك أن الجنس هو أكثر حداثة من الهدف الأول للعضوية البشرية : الرغبة في البقاء ، وحفظ الذات من الفناء . صحيح أننا في بعض الأحيان نرى الحيوانات في الحرّ تهمل كل حذر ؛ ونرى ديك الجبل ، خلال فصل التكاثر ، أقلّ اكتراثاً لاقتراب الصياد ، ولكن أليس الأمر كذلك بالنسبة للغرائز الأخرى في حالات الطوارىء ؟ ألا يتحدّى الإنسان الجائع كل الأخطار في سبيل الحصول على الطعام ؟

نحن لا نعرف كيف أتى الجنس والجنسية إلى الحياة العضوية ؛ كما لا يمكن لعلماء البيولوجيا أن يخبرونا بذلك[2] . ومن المؤكد أن الجنس لم يكن له في الأصل أي معنى

---

(2) ـ لعلّ أفضل تفسير هو ذاك المتضمَّن في الاسطورة التي عرضها اريستوفان في « مأدبة » أفلاطون والتي تحكي عن الكائن الأصلي المرأة ـ الرجل. ولقد قام زيوس بفصم هذا المخلوق ثنائي الجنس إلى نصفين راح كل منهما يتوق لأن يعود إليه نصفه الآخر ثانية كي يلفّا أذرعهما حول بعضهما البعض وفي عناق متبادل يتشوقان لأن يلتحما من جديد . أما أعضاؤهما الخصوصية المنزاحة إلى المقدمة فصارت=

شخصيّ . ومن السذاجة أن نفترض أن الطاقة الجنسية العمياء ، التي تُدعى اللبيدو ، لها طابع شخصي . ويبدو الدافع الجنسي الخام بمثابة ابتعاد عن شيء ما أكثر منه اندفاعاً صوب شيء آخر ـ محاولة للفرار من ضغط عضوي داخل الفرد . ونحن عندما نفكّر بالدافع الجنسي أو نتكلم عنه نأخذ كمسلّمة ما هو في الحقيقة صلة غير مبرّرة بين حافزه الداخلي والتنبيه الذي يتلقّاه من الموضوع الخارجي فهو في الأصل بلا موضوع ، إحساسٌ ضمن العضوية يتطلب إطلاقاً شأن الضغط داخل المثانة . ولا يتجه هذا الدافع الذي لا يميّز بين الأشخاص باتجاه موضوع مختار إلا لاحقاً . فهو في البداية لا يكون اختيارياً تماماً ، وإنما يعتمد عادة وإلى حد بعيد على الموضوع الأكثر توافراً . وفيما بعد تكون الموضوعات المختارة هي تلك التي تعد بأكبر إشباع satisfaction من النوع الفيزيائي ، ولكن حتى آنذاك تظلّ مسألة الفرصة الأسهل تحظى بأهمية فائقة . ولقد دعا نابليون الزنى ساخراً : « 'une affaire du canape'[*] » فالاستعداد لاستبدال موضوع بآخر تكون له دلالته وأهميته عند هذا المستوى . إنْ لم تكن آنا هناك ، فإن ماري ستفي بالغرض[3] .

إنه لمن مصلحة الوضوح السيكولوجي أن نستطيع التفريق بين حالة الحافز الجنسي العام وحالة الرغبة بموضوع جنسي محدد . وأنا أقترح ، لإيضاح هذا الفارق ، التمييز بين هاتين الحالتين ، بأن نطلق على الأولى اسم « الاحتياج » وعلى الأخرى اسم « الرغبة » . فالشخص المحتاج يستشعر ضغطاً جنسياً قوياً دون أن يتخيّل موضوعاً محدداً . أما الرغبة فتدلّ على تمنّي الاتصال الجنسي مع شخص محدد . ويمكن مقارنة

= تُسْتَخدم من أجل التكاثر . ولن تكون جرأة زائدة منا أن نزعم أن أريستوفان يعالج هنا أصل الحب ومنشأه أقلّ مما يعالج أصل الجنس ، وأنه يردّ الجماع إلى إعادة الجزئين المنفصلين إلى حالة اتحادهما الأصلية . (البروتوزوا) .

(*)ـ بالفرنسية في النص الاصلي : مسألة أريكة

(3) ـ يقول تعليق على رسم كاريكاتوري يُظْهِرُ رجلاً يركض للّحاق بالباص : « لا تركض أبداً خلف باص أو امرأة . خلال دقيقتين أو ثلاث سيأتي غيرهما » .

هذا الفارق بالفارق بين شخص جائع جداً ، يُسَرُّ لأي طعام ، وآخر يختار شرائح اللحم ، ليتناولها بكل هدوء . وبالطبع ، فإن هنالك انتقالات ممكنة من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية . حيث يمكن للمرء القول : « أودُّ أكل اللحم » أو « أريد بعض الفاكهة » .

دعونا نتصور ، للحظةٍ ، أن الاتصال الجنسي فعلٌ يُنجَز دون تمييز بين الأشخاص ، كإجراء صحيّ محض ، أو كفرصة للتخلص من توتر فيزيائي . إن مثل هذا الافتراض قد يكون مستحيلاً سيكولوجياً لدى الأشخاص المثقفين ، ومع ذلك فلنقبل مؤقتاً أنه يمكن لرجل ما أن يتصل جنسياً بامرأة لم يرها أبداً من قبل وتغطي وجهها ببرقع . في مثل هذا الحالة المُتخيَّلة (والتي غالباً ما تحققت في مواخير الجنود أثناء الحرب) يكون الاتصال الجنسي ضحل الإشباع ، وخالياً من المتعة ـ شيئاً تمكن مقارنته بالتبول ، وليس فيه من الانتعاش أكثر مما في قذفٍ يزيل التوتر الفيزيائي . ولقد عبّر لي مريض عصابي ، لم تكن مقدرته الجنسية مستقرة ، أنه حاول مرة القيام بتجربة مماثلة . فقد قرر ، بضغط من حاجته الجنسية ، ممارسة الجنس مع عاهرة دون محاولة الشعور بأي تورط انفعالي ، وكما قال ، دون فعالية أو اهتمام بالفعل الجنسي ، ودون تعارف من طرفه . فما كان من المرأة إلا أنْ سألته في منتصف الفعل : « أتريد جريدة ؟ »

إذاً ، أين يمكن لنا أن نجد الدافع الجنسي غير المختلط ؟ أنا واثق من أنني لا أعلم . هل في التجارب المخبرية ؟ لكني لم أسمع أبداً بمثل هذه التجارب ، فمن الصعب توفير شروطها الضرورية . إذ كيف يمكن إقصاء عامل الانفعال emotion وإزالة تأثير الأفكار والاستيهامات Fantasies المتصلة بالجنس ، وإبعاد مفاعيل الدوافع الأخرى التي تترافق مع الحافز الجنسي ؟ يبدو أننا لن نستطيع أبداً التوصل إلى التعبير السيكولوجي عن الغريزة الجنسية في شكلها الأكثر نقاءً ، وبدئية . يمكن لنا أن نأمل بالدنوّ منها وحسب ، مع أنه من المشكوك به كثيراً ما إذا كان يمكن للتجربة المخبرية تقديم جواب تقريبي . كما أن نتائج الاستبيانات التي نشرها هافلوك إليس وكثير من الأطباء الأمريكان ليس لها سوى قيمة مؤقتة .

في بعض الأحيان توفر الحياة ذاتها شروطاً قريبة من تلك التي نودّ توفّرها في الاختبارات السيكولوجية . وعلى سبيل المثال ، فقد نقلت سيدة شابة التجربة التالية أثناء التحليل النفساني : في إحدى أمسيات الصيف الحارة ، وحين كانت في مزاج قلق ومُثار بصورة غامضة ، وهو مزاج تشعر به معظم النساء قبل الطمث مباشرة ، ذهبت هذه السيدة إلى السينما . كان الفيلم قد بدأ ، وفي الظلمة جلست في أول مقعد قادها إليه الدليل . وما هي إلا بضع دقائق حتى شعرت بيد رجل تداعب بلطف ذراعها العاري . وبالطبع نهضت مباشرة وانتقلت إلى مقعد بعيد ، ولكنها لبضع ثوانٍ شعرت بتهيج جنسي شديد مع أنها لم ترَ الرجل . لقد أفسدتْ حقيقة انقطاع التهيج الجنسي في طوره البدئي القيمة السيكولوجية لهذه التجربة . وبما أن الدافع الجنسي البشري يظهر للمراقب السيكولوجي في هيئة معقدة مسبقاً ، فإن من العبث أن نتوقع من معطيات الاستبيانات ما يمكن أن يسعفنا . ويبدو أن النشاط الجنسي لدى الأطفال ، والقبائل البدائية ، والأفراد الذين لم يتأثروا تأثراً قوياً بنموذجنا الثقافي(*) الذي نعيش فيه ، هو أفضل المصادر المتوفرة للمعلومات اللازمة من أجل البحث السيكولوجي للدافع الجنسي ؛ ولكن هنا أيضاً ، تعوقنا ندرة المعلومات المستحصلة وقيمتها المحدودة .

في نقاشنا إشكالية الجنس ، نهمل عموماً أن نأخذ في الحسبان أن الجنس ليس كما كان منذ آلاف السنين . الدافع الخام هو ذاته بالطبع ، ولكن تظاهراته خضعت لكثير من التغيرات . فقد مرّ زمن كان فيه للدافع الجنسي طابع دوريّ صرف ، شأنه لدى البهائم ، كونه مقتصراً على فصول الحرّ . فهذا الدافع كان يتبع إيقاع العالم العضوي ،

(*) ـ تشير كلمة Culture الانجليزية إلى معنى الثقافة والحضارة في آن واحد . وكثيراً ما تُسْتَخدم كلمة ثقافة بهذا المعنى ، لا سيما عند علماء الانثروبولوجيا ، حيث تشير إلى ذلك الكلّ المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع . وبالمناسبة فإن ثيودور رايك كان متميزاً بين المحللين النفسانيين بسعة معارفه الأنثروبولوجية .

نفس القانون الذي يتحكم بتغير النوم واليقظة ، الجوع والشبع ، ودورة المدّ والجزر . ومع أن الثقافة تستحسن مسيرة غيْر إيقاعية إلا أنها لم تستطع إزالة الطابع السابق بصورة كاملة . ولا يزال الدافع الجنسي محتفظاً بشيء من طبيعته الأصلية إلى الآن . ولا بدّ أنّ التغيرات القبتاريخية prehistoric في البيئة ، والمناخ ، والقشرة الأرضية والطعام ، قد تركت جميعها أثراً على عادات البشر الجنسية . كما أن هنالك تغيرات أخرى فُرِضَت على هذه العادات ، ليس من قبل الحياة الخارجية ، وإنما من قبل قوى داخل البشر أنفسهم ، وأكملت ، أو بالأحرى عملت على تذويت(*) internalization تلك التغيرات الأخرى ، ذلك أن الإنسان يصوغ نفسه على غرار العالم المحيط . وهكذا فإن الجنس كان له في الأصل طابع العراك ، وكان يتمّ فيه اغتصاب المرأة أكثر مما تتمّ معانقتها . ولابد أن أنثى ما قبل التاريخ ـ لا بد أنكم تترددون في أن تقولوا « امرأة »ـ قدعضّت رجل الكهوف المعتدي في عنقه أثناء هذا العراك . ولقد كان على البشرية أن تقطع طريقاً طويلاً من الأسنان إلى الشفاه ، من العضّة إلى القبلة . وسوف نتتبع هذا الطريق لاحقاً .

نحن لم نعد نأكل مثل إنسان كرومانيون(**) . لسنا من أكلة لحوم البشر ، ولا ننتزع اللحم النيء من بين أشداق الحيوانات لنلتهمه . لا نأكل الجذور من الأرض كما فعل ،ولا نأكل بذات الطريقة . ولقد تغيرت شهية الإنسان للطعام في شدتها ، وفي ما تشتهيه ، وفي تعبيراتها ،وهكذا حصل لشهيته الجنسية . ويكفي أن نتذكر واحداً فقط من تلك التحولات التي نجمت في البداية عن عوامل خارجية ، ولكنها تدعّمت لاحقاً بمحددات انفعالية . فقد تلقّى الدافع الجنسي تنبيهات جديدة عندما بدأت النساء بارتداء الملابس . ولقد عمل هذا العامل غير الجنسي على تغيير طابع الموضوع

---

*) ـالتذويت : إضفاء صفة ذاتية على شيء ما ، وخاصة إدماجه في النفس بحيث يصبح بمثابة مبدأ هادٍ . وثمة ترجمة لهذا المصطلح بـ « استدخال » .

**) ـ إنسان كرومانيون : إنسان قبتاريخي وجدت بقاياه في كهف كرومانيون في فرنسا .

المرغوب . ولقد وصف أناتول فرانس في مشهد مؤثر من جزيرة البطريق أيّ استحالة Metamorphosisثورية حدثت عندما برزت النساء لأول مرة وعليهن الملابس ـ لعلكم تفضلون القول أنهن برزن و عليهن الأغطية . إن هذا وغيره من التغيرات التي لا بد أنها حصلت خلال مئات عديدة من آلاف السنين هي التي جعلت من الإنسان بالتدريج هذا الحيوان الأليف الذي نعرف ولكن الذي تحوّل ليس طبيعة الدافع الجنسي الخام ، وإنما شروط إثارته وتعبيراتها . فقد حدث تغيّر كبير في هذه الشروط والتعبيرات من أشكالها الأكثر بدائية وصولاً إلى تظاهراتها اليوم ، تغيّر يتسم أكثر ما يتسم بالفارق في الطريقة التي ننظر بها إلى الموضوع ، وبتمييز يأخذ في البداية هيئة أية أنثى وفي النهاية صورة الحبيبة . ومن الواضح أن كل إنسان يكرر في تطوره الفردي هذه المسيرة التاريخية الطويلة :

كان ثمة أحمق يلهج بصلواته
(مثلي ومثلك تماماً)
لخرقةٍ وعظمةٍ وكبّة شَعر
(نحن ندعوها امرأة لا نفع فيها)
لكن الأحمق يدعوها سيدته الجميلة
(مثلي ومثلك تماماً)

ولكن أليس في أبيات روديارد كبلنغ الوقحة هذه تطور مشابه لما نجده في الدين ؟ ألم يتحول الله من صورة زعيم القبيلة الفاسد إلى أرقى مثال يعرفه الإنسان ؟ وهل كفّ يهوه عن الظهور في بعض الأحيان كطاغية غيور وحقود ؟ إنها لقلّة تهذيب حقاً أن ننظر إلى امرأة ، أية امرأة بمثل هذا الازدراء البارز في ابيات كبلنغ . أما بلزاك ، وهو كاتب أعظم من كبلنغ ،فقد عرض على صديق له صنماً فجاً من جزر بحر الجنوب . وعندما علّق الزائر باستخفاف ، حذّره بلزاك قائلا : « صه ! وما أدراك أنه ليس إلهاً ؟ » وما أدراك أنت أن هذه المرأة ، هذه البغي أو الخادمة البائسة التي تهزأ بها ، ليست ربّة لواحدٍ أو لكثيرٍ من الرجال .

الخلط بين الحب والجنس

تذكرون أن من بين المصادر الثلاثة التي تشكّل سعادة جون وجين- الحب، ومكاسب الأنا ، والإرضاء الجنسي- اخترنا الجنس باعتباره الموضوع الأول لبحثنا حيث قيل لنا أن الحب ليس إلا شكلاً مكفوف الهدف Aim – inhibited من الجنس . وقد قدّم لنا العلم الحديث ، وخاصة التحليل النفسي ، هذه المعلومة . فالدافع الجنسي ، تبعاً لفرويد ، انحرف عن غايته الأصلية أو كُفَّ عن بلوغها . والنتيجة هي الحب . هذا الانفعال الذي يبقى جنسي الطابع ، بصورة لا واعية على الأقل ، مهما بدا مجرداً من الجنسية .

ولقد أمكن لفرويد وتلامذته عرض القضية على هذا النحو من خلال توسيع معنى كلمة جنس . فهي تتضمن من المعنى بالنسبة لهم أكثر مما تتضمنه بالنسبة للناس العاديين . والحياة الجنسية تشتمل ، بنظرهم ، على كل المشاعر والنشاطات التي تجد أصلاً لها في الحافز الجنسي البدئي . وإيمان فرويد الراسخ بأن الحب ، والعاطفة ، والصداقة هي أيضاً جنسية في منشئها وطبيعتها يستند إلى خبرة مفادها أنّ من الممكن اكتشاف نزوعات جنسية تفعل فعلها بصورة لا واعية في ما ندعوه الحب النقيّ ، وأنّ من الممكن أن نجد هذه المكابدات الجنسية المكفوفة الهدف حاضرةً وفاعلةً في حنان الآباء تجاه أبنائهم ، والأبناء تجاه آبائهم ، وفي الصداقة بين شخصين من الجنس ذاته . وليس صحيحاً ، كما يؤكد خصوم التحليل النفسي ، أن الجنس يلعب دوراً مفرطاً في نظرية فرويد . فعندما يتمّ تضخيم فكرة الجنس بحيث تشتمل على الحنان ، والعاطفة . والغرور ، والطموح ، وكثير من دوافع الأنا ، لن يبدو الدور مفرطاً . ولكن السؤال هو فقط ما إذا كان مثل هذا الاشتمال ممكناً .

هل كان بمقدور فرويد أن يسهم في إثبات أن الحب هو أساساً جنسيّ في منشئه

وطبيعته ، وأنه ليس إلا نسخة مطابقة للجنس ، دون توسيع معنى هذا الأخير؟ لا شك أن ذلك ما كان ليتمّ له باستخدام كلمة جنس بمعناها السابق على التحليل ـ النفسي . فلقد فرّق البشر على الدوام بين الحب والجنس ، وما زالوا يميّزون بشدة بينهما . ولم يتسع معنى الكلمة وتُضْحي تعبيراً يخلط الحابل بالنابل إلا مع التحليل النفسي(*) . فسواء كنتَ تشعر تجاه امرأةٍ بعاطفة أو بتهيّج جنسي عابر ، فإنّ التحليل النفسي يدعو هذه المرأة موضوعك الجنسي .

ولقد خضعت كلمة ليبيدو لهذا التوسيع الجائر وغير المبرّر ذاته . فهي في الأصل كانت تعني طاقة الدافع الجنسي ، ولا شيء أكثر . أما لدى فرويد فقد أخذت أيضاً معنى القدرة الانفعالية للعاطفة والحنان الموجّهين نحو شخص أو عدد من الأشخاص ، وحتى نحو أفكار مجرّدة . وفرويد ، شأنه شأن بروكروست في الميثولوجيا الاغريقية ، لديه ميل إلى توسيع ومطّ المصطلح كي يلائم فكرته . وتمكن مقارنة مثل هذا السلوك بموقف ذلك الخصم العنيد الذي جادله ابراهام لنكولن ذات مرة :

---

*) ـ يلخّص الدكتور مصطفى زيور هذا التوسيع فيقول : « ولابد من الاشارة إلى أن مفهوم الجنسية في التحليل النفسي مرادف لمفهوم الحب بأوسع معانيه ، فهو يتضمن أولاً الحب الجنسي وما يهدف إليه من الاتحاد الجنسي (أي الاتصال الجنسي بفرد من الجنس الآخر) كما يتضمن حب الذات ، وحب الوالدين والأولاد ، والصداقة ، وحب الإنسانية عامة ، وكذلك التعلّق الحميم بالموضوعات العيانية والأفكار المجردة . فكل هذه الميول ، كما تبينّ خبرة التحليل النفسي ، تعبر عن دوافع غريزية واحدة . ففي العلاقات الجنسية بين الجنسين تقتحم هذه الدوافع الطريق صوب الاتحاد الجنسي . ولكنها تتحول في ظروف أخرى عن هذا الهدف ، أو تُمْنَعُ من الوصول إليه ، وإن ظلّت دائماً تحتفظ بقدر من طبيعتها الأصلية يكفي للتعرف على وحدتها . » (انظر تقديمه لكتاب فرويد « **ثلاث مقالات في نظرية الجنسية** » ، ترجمة سامي محمود علي ، مراجعة مصطفى زيور ، دار المعارف ، القاهرة ، المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي ، ص 5) .

ـ « حسناً ، لِنَرَ ، » قال لنكولن لهذا المزارع ، « كم ساقاً للبقرة ؟ »
ـ « أربع ، بالطبع » ، كان الردّ السريع .
ـ « هذا صحيح ، والآن هَبْ أننا دعونا ذيل البقرة ساقاً ، فكم ساقاً يكون لها آنئذ ؟ »
ـ « ماذا ، خمس ، طبعاً . »
ـ قال لنكولن : « الآن هنا خطؤك . وذلك ببساطة لأن تسمية ذيل البقرة ساقاً لا تجعل منه ساقاً بالفعل . »

وبالمثل ، فإنَّ تسمية الحب والحنان شكلاً من الجنس لا تجعلهما جنسيين . والمطابقة بين العاطفة والجنس باستخدام الاسم ذاته لكليهما لا تجعل منهما الشيء ذاته .

وكان فرويد قد حذّر أتباعه وتلاميذه لئلا يأخذوا كلمة جنس بمعناها الحرفي القديم . وحاول مرة بعد مرة اقناعهم أن كل مشاعر العاطفة والحب مُتَضمنة في المعنى الجديد الذي يستخدمه التحليل النفسي . كما فضّل لبعض الوقت استخدام تعبير « الجنسية النفسية » Psychosexuality كي لا يُساء فهمه ويُظَنّ أنه يقصد الرغبة الجنسية البدئية . ولكن المحاولة باءت بالفشل . وأثبتت الكلمة أنها أقوى من مشيئة فرويد ونزوعه إلى تغيير مضمونها . لقد رمى صياد البحار العميقة هذا شبكته في أوقيانوس النفس البشرية آملاً الظفر بكثير من الأسماك الكبيرة دفعة واحدة : الجنس ، الحب ، الحنان ، الصداقة . لكن ما عَلِقَ فيها لم يكن سوى الجنس وحده . أما الأخريات فقد فررنَ من عيون ا لشبكة الوسيعة .

وبالنسبة للسيكولوجيين والأطباء النفسانيين من أتباع فرويد سرعان ما أصبحت الفروق بين الحب والجنس متناهية في الصغر ومن ثمّ اختفت في النهاية . الأمر الذي يذكّر بذاك الموظف الحكومي الذي تحدّث عنه مرة أحد الكتّاب الفيينيين الظرفاء قائلاً : « إنه يأخذ مثل هذه الرشاوى الصغيرة على أساس أنه غير قابل للرشوة تقريباً » . وبالمثل ، فإن إمكانية العودة من المعنى الفرويدي لكلمة جنس إلى مضمون الكلمة الأصلي أضحت صعبة ودقيقة إلى أبعد حدّ بحيث بات من الضروري بذل مجهود كي نتذكر أن الكلمة عنت لفرويد شيئاً مختلفاً . لقد حام فرويد حول مشكلة الحب مفترضاً

أنه مؤشر على الجنس . وبالتالي فإن الجهد الذي بذله لم يكن لحلّ المشكلة بقدر ما كان لإبقائها مستورة . وبالنسبة للمحللين النفسانيين ، بدت العاطفة كما لو أنها محض نسخة هزيلة للرغبة الجنسية . ولم يجدوا صعوبة في القفز عن هذه الإشكالية ؛ فعماهم النظري حال بينهم وبين رؤيتها . أما القلّة ممن كانوا مدركين لوجودها فقد أمِلوا أن تختفي إذا ما واصلوا الإشاحة بوجوههم عنها . وهكذا فإنهم لم يتمكنوا من حشر أو حتى إلصاق أية فكرة أصيلة في منظومتهم الجامدة : الحب هو الجنس مطروحاً منه الجنس وكفى المؤمنين شرّ القتال .

إذا كان فرويد قد وجد آثاراً للرغبة الجنسية اللاواعية في الحنان والصداقة ، فهل هذا يثبت وجهة نظره ؟إنّ ثمة هواء في المقعد أيضاً . فهل نقول عندئذ ، أن المقعد مصنوع من الخشب والهواء ؟ إن كون الحب غالباً ما يوجد متحداً وملتحماً مع الجنس لا يعني أنهما من طبيعة واحدة . فالألفة Affinityلا تعني التطابق Identity ويمكنك أن تكون خدين شخص آخر دون أن تشبهه . كما يمكنك أن تكون وليف رجل ليس من عائلتك .

بين الحب والجنس فروق من طبيعة حاسمة تجعل من غير المحتمل تماماً أن يكونا من أصلٍ واحد ولهما الطابع ذاته ، كما يؤكد المحللون النفسانيون . وتتجلّى هذه الفروق على أفضل وجه عندما تتعارض كلتا الظاهرتين في شكليهما الأنقى . وهاكم بعض الأمثلة : الجنس حافز بيولوجي ، نتاج للكيمياء ضمن العضوية ؛ أما الحب فتوق انفعالي شديد ، من إبداع خيال الفرد . في الجنس دافع للتخلص من توتر عضوي ؛ أما في الحب فحاجة للفرار من الشعور بالنقص والقصور . في الأول طلب للإشباع الجسدي؛ أما في الثاني فسعيٌ وراء السعادة . أولهما يُعنى بخيار الجسد ؛ أما الآخر فبخيار الشخصية . للجنس معنى عام ؛ للحب معنى شخصي . الأول نداء الطبيعة ؛ أما الثاني فضرورة الثقافة . الجنس مشترك بين البشر والبهائم ؛ أما الحب أوالغرام فقد ظلّ مجهولاً آلاف السنين لدى بني البشر ولا يزال مجهولاً بالنسبة لملايين منهم إلى الآن . الجنس أعمى لا يميّز بين شخص وآخر ؛ أما الحب فموجّه نحو شخص بعينه . الأول يرخّي العضلات ؛ أما الثاني فيفتح مسارب الفيض في الشخصية . وحتى المُشْبَع جنسياً

يمكن أن يشعر بلوعة الحب . الدافع الجنسي يخمد بعد الفعل ؛ ذلك أن هنالك توتراً ، فتشنجاً ، فإطلاقاً ، وفعل اللذّة Pleasure الأوليّ لا يمكن تذكّره لاحقاً ، شأنه شأن طعام خاص لا يمكن استرجاع نكهته بصورة حيوية . أما في ظاهرة الحب فلا تمكن ملاحظة مثل هذه اللامبالاة تجاه الموضوع . فكل إيماءة وكل كلمة من الحبيبة يتمّ تذكّرها بصورة مشرقة . الجنس درامي ؛ أما الحب فغنائي . موضوع الجنس لا يكون مرغوباً إلا خلال فترة التهيج القصيرة ويكفّ عن كونه كذلك خارجها ؛ أما المحبوب فهو موضوع حنان متّصل .

وهكذا فإنني ، لدى مناقشة إغواء Lure الموضوع ، أميّز بين إغرائه الشخصي Appeal وإغرائه الجنسي . فالاثنان منفصلان على نحو واضح في الواقع ، لا في التوصيف وحده . إن الإغراء الجنسي يتلاشى بعد الفعل . فبقيامك بالفعل الجنسي ، تكون قد انتهيت من هذا الإغراء . أما الإغراء الآخر فهو من طبيعة باقية . وكثير من الرجال ، وعدد أقلّ من النساء ، يخلطون بين هاتين الحاجتين ، مع أنهما تمثلان وجهين متباينين من أوجه الملاحظة الذاتية . وعندما يتحد الحب والجنس ويتجهان نحو الموضوع ذاته ، يكون من الصعب أحياناً معرفة أيّ من الحاجتين تحظى بحصة الأسد ، ولكن فصلهما يمكن أن يتمّ على نحو واضح عادة في إدراكنا الحسيّ Prception

كيف أمكن للنظرية الفرويدية ، التي اعتبرت الحب نوعاً من الحافز الجنسي المُسْتَبْعَد ، أن تحظى بكل هذا القبول ؟ ولماذا لم يكشف الجدل الذي تأخر كثيراً أن هذه النظرية تؤدي إلى خلط مروِّع ونتائج فاسدة ؟ ليس الجواب في حوزة الكثيرين من السيكولوجيين والأطباء النفسانيين . فهنالك ، أولاً ، التقليد الفسلفي والتعليم الطبي الذي يجب التغلّب عليه . وفي هذه النقطة بالذات لم يكن فرويد أصيلاً ولا واسع الخيال . إن سلطة معظم الفلاسفة من أفلاطون إلى شوبنهور ، ومعظم الأطباء من العهود الاغريقية إلى الأطباء النفسانيين في أيامنا هذه ، عزّزت النظرة التي تعتبر الحب جنسياً أساساً في أصله وطبيعته ، سليلاً انفعالياً للدافع الجنسي . وهنالك ، ثانياً ، ما لدى الأطباء من مقتٍ Avrsion طبيعي تماماً ، لنشوة الشعراء والعشاق الذين رأوا في الحب ظاهرة فوق- طبيعية أو ميتافيزيقية ، ليست من هذه الأرض وغامضة في

طبيعتها . وأخيراً ، وليس آخراً ، لم يكن ثمة نظرية أخرى بمقدورها أن توضح هذا الشعور وتفسّر سبب اتصاله الصميمي مع الجنس في معظم الحالات . ويوضح وجود هذه العوامل الثلاثة سبب بقاء نظرية فرويد دون نقض كل هذا الوقت . لكن الاحترام الشديد للسلطة والتقليد في الطب النفسي والفلسفة لا يمكن تبريره عندما نصادفه لدى البحاثة النقديين . ومن المبرّر ، بالطبع ، التأكيد على أن الحب متأصّل في السيرورات الانفعالية ، وأنه موضوع للاستقصاء السيكولوجي . ولكن الخشية من أن يختلط علم النفس كعلم متميز مع نظريات الشعراء المترفّعة ويفسد بها تبدو جديرة بالازدراء . أما غياب أية نظرية سيكولوجية قيّمة أخرى فيما يتعلّق بأصل الحب وطبيعته فقد كان أمراً مؤسفاً لا يمكن نكرانه ؛ و هذه حقيقة علينا أن نخجل منها نحن السيكولوجيين .

بقي الوضع على حاله إلى أن ظهر التحليل النفسي ـ الجديد Neo – Psychoanalaysis . وأنا أطلق هذا الاسم المؤقت على تجديد التحليل النفسي ، هذا التجديد الذي يعني في الوقت ذاته مراجعة وإعادة تقييم لكثير من نظريات فرويد . إن التحليل النفسي ـ الجديد هو في مناحٍ محددة مواصلةٌ لعمل فرويد ؛ وفي أخرى ، بديل لها[1] . إنه ثورةٌ في الثورة . وليس مصادفة ان البحث التحليلي النفسي ـ الجديد بدأ بدراسة منشأ وطبيعة الحب باعتباره متفارقاً مع الجنس ومتعارضاً معه . وسوف نعود إلى هذا الموضوع لاحقاًبعد مناقشة نظرية اللبيدو الفرويدية ، هذا التأويل الخاطىء الغريب الذي طلع به التحليل النفسي على العالم . فهنا اقترف فرويد خطأً فاحشاً . أما الكثيرون من تلامذته المقتفين خطا استاذهم ، فقد جعلوا الأدب التحليلي ا لنفسي ،، بانتاجهم الغزير ،ولكن الخالي من الإبداع ،مرتعاً للمعلومات الخاطئة عن الجنس والحب . لقد لاحظوا كثيراً من الوقائع التي لا يمكن نكرانها . كما عرضوا كثيراً منها على نحوٍ منسجم ، ولكن لابدّ من تحرّي الدليل . ولابد أن نعترف أن العديد من المحللين النفسانيين هم ذوو ضمير حي شأن فرويد على الرغم من أنهم أضعف منه ملاحظةً

(1) ـ ثمة كتاب سيصدر قريباً ، عنوانه نشوء التحليل النفسي ـ الجديد ، تأليف ثيودور رايك ، سوف يوضح هذا المفهوم .

بكثير . فبعد أن جمعو وقائعهم ، رتبوها وفسّروها كما يشاؤون . وغالباً ما يخلّف لديك تقديمهم للنتيجة النهائية انطباعاًبأنهم يتّبعون نصيحة مارك توين : « امتلك الوقائع أولاً ومن ثم يمكنك تحريفها كما تشاء » . ليس يكفي أن تعني الصلة بين واقعتين أو أكثر شيئاً ما . بل يجب أن تكون هي أيضاً شيئاً ما .

إن لوحة العلاقات البشرية كما يصورها المحللون النفسانيون هي لوحة مشوهة الأجزاء . إنها تشبه صورة شخص في المرايا المحدّبة والمقعّرة التي يقف أمامها زوّار ميادين اللهو . هل أنت ذاك الذي يبدو في المرآة ؟ أجل إنه أنت ، ولكن مشوهاً وممسوخاً على نحوٍ فانتازي ـ سميناً بصورة هائلة أو نحيلاً إلى حدٍّ مفرط ، طويلاً جداً أو بالغ القِصَر ، بأيدٍ وأرجلٍ عملاقة ـ كالقزم أو كجوليات(*) . إنَّ مرآة التحليل النفسي تعكس الطبيعة البشرية باعتبارها طبيعة جنسية على نحو مغاير لكل ما هو طبيعي . وما هو موضع شك ليس وجود الجنس ، وإنما التقييم السيكولوجي والأهمية الانفعالية اللذان يُسبغان عليه . ولاحاجة بالوقائع لأن تكون هامة بحدّ ذاتها ؛ فهي تستمد دلالتها وأهميتها بارتباطها مع غيرها من الوقائع . والوقائع الجنسية التي يجدها التحليل النفسي لا يمكن نكرانها في الغالب ، لكنها تبدو غير متصلة بالموضوع ، غير أساسية ، وارتباطها بالاشكالية ضعيف ما دامت لا تعنى إلا بالحاجات الجنسية الخام .

ليس موضع شك أن الدافع الجنسي الأولي الذي يفعل فعله دون تمييز بين الأشخاص هو قوة تحركُ العالم . وليس في نيّتنا هنا الارتداد إلى ما قبل الفرويدية ، وإنما القيام بالتفريق الذي يقتضيه البحث السيكوليوجي الجديد . فالباحث السيكولوجي الذي يتفحّص النظريات التحليلية في الجنس ، يجد نفسه في وضع شخص يحاول دون جدوى حلّ أحجية الصورة المقطوعة Jig saw puzzle . فكثير من القطع يناسب بعضها البعض الآخر ، لكن كثيراً منها ليست كذلك . ولا تزول هذه العقبة إلا عندما نتحقق من أن هنالك قطعاًتعود إلى صورة أخرى ويجب طرحها جانباً . ومهمتنا الأولى هي عزل هذه القطع . فهي في الأصل من علبة أخرى وقد اختلطت خطأً مع قطع الأحجية التي بين أيدينا .

*) ـ جوليات الفلسطيني ، مارد من التوراة ، هزمه الملك داوود .

الانفصام بين الجنسية والحنان

سبق لأرنست رينان أن أعلن أنَّ عدداً قليلاً فقط من البشر لهم حقّ انتقاد النظام اللاهوتي للكنيسة الكاثوليكية ، لأن قلّة فقط تعرف وتدرك أي مقدار من الحكمة والذكاء ، ومن العبقرية الثاقبة قد استُخدمت في بناء هذا النظام. وللسبب ذاته ، فإن قلّة من الناس فقط ممن صرفو سنوات عديدة في بحث الموضوع يمكنهم انتقاد نظرية اللبيدو الفرويدية . ولكن إذا ما قبلنا الأفكار الأساسية ، وخاصة المفهوم الموسّع للجنس ، فإن من الصعب على نحو استثنائي أن نزيل التشوّش الناجم عن هذه التصورات الخاطئة الأصلية . ولذا فإن التنقية الدقيقة للأفكار تصبح ضرورية جداً .

إن المراجعة النقدية التي نقوم بها هنا لنظرية فرويد في الجنس ليست لمجرد المراجعة . ذلك أنَّ النقد لا معنى له إنْ لم يكن بنّاءً وإنْ لم يقدّم شيئاً أفضل يحلّ محلّ المفهوم الخاطىء . ونحن في هذا الكتاب لا نناقش في نظرية اللبيدو إلا تلك الجوانب التي يتوافر لنقدها مثل هذه الشروط . ولا بد أن أضيف أن معارضتي التي لا هوادة فيها لمفهوم فرويد في الجنس والحب لا تغيّر من اعتباري له كواحد من أعظم السيكولوجيين على مرّ العصور .

تستدعي العلاقة بين الجنسية والحنان Tenderness إشكالية ذات أهمية خاصة جداً : فالموقف السويّ في الحياة الحبيّة لا يكون ممكناً إذا لم يتحد هذان التياران ، وإذا لم تتلاقى النزوات الجنسية مع نزوات الحنان على الموضوع ذاته . ويعود الكثير من البؤس والتعاسة في العلاقة بين الجنسين إلى الإخفاق في بلوغ هذا الاتحاد . كما أن الانفصام بين الجنسية والحنان هو سبب الكثير من المصاعب في الحياة الزوجية . وقد شغل هذا الانفصام اهتمام السيكولوجيين ، وخاصة في تظاهراته البارزة مثل العنّة Impotence لدى الرجال والبرود Frigidity لدى النساء . أما فرويد فقد ناقش منشأ وطبيعة هذا الانفصام

مرات عديدة . ومن بين التيارين ، يؤكد فرويد ، أن تيار الحنان هو الأقدم ، ويكون موجّهاً إلى أفراد العائلة وإلى أولئك الذين يعتنون بالطفل . ومن ثم ، فإنَّ موضوعات الحب الأولى ـ الأم ، المربية ، الأخت الكبرى ـ تصبح هي الموضوعات الجنسية الأولى ، إلى أن يواجه الدافع الجنسي لاحقاً حاجز غشيان ا لمحارم(*) .

عندما تنشغل استيهامات الشاب اللاواعية بتلك الموضوعات ، المحاطة بتابو المحارم Tabu of incest ، تتعطّل وظيفته الجنسية تجاه امرأة تذكّره بأمه أو بأخته . وبالتالي فإنه يصبح عنيناً ، أو أن قدرته الجنسية تصبح مزعزعة ومتقلّبة ، لأن شيئاً ما في المرأة يذكّره بالأشخاص المحظورين عليه . أما القسم الذي يبقى سليماً من رغبته الجنسية فيتحول الآن إلى موضوعات بعيدة اجتماعياً ، لا تنتمي إلى دائرة الأشخاص الذين يفكّر بهم كبدائل لأمه أو لأخته . وعاقبة مثل هذا التجنّب في التفكير هي تبخيس الموضوع Degradation . وبعبارة أخرى ، فإن هذا الرجل لا يمكنه أن يؤدي وظيفته الجنسية إلا مع نساء ينظر إليهن من عل ويحتقرهن ، بينما يكون عنيناً مع نساء يحترمهن ويعتبرهن أنداداً لأمه ولأخته . وعندما يتّخذ امرأة من هذه المجموعة الأخيرة بمثابة موضوع جنسي ، فإن عليه أن يبخّسها في أفكاره واستيهاماته كي يجعلها ممكنة كموضوع للإرضاء الجنسي . وغالباً ما تفشل محاولة توحيد متطلبات الحنان مع المتطلبات الجنسية . وقد ردّ فرويد العنّة النفسية إلى عدم التقاء المكابدة الجنسية والمكابدة العاطفية . فالكفّ Inhibition الملحوظ لدى البالغ ينجم عن تثبُّت Fixation الطفل على موضوعاته الأولى ويدلّ لاحقاً على قوة التأثيرات التي كبحت ذات مرة رغبات الصبي المحرَّمة الأولى . أما بالنسبة للنساء الباردات جنسياً ـ وعددهن في حضارتنا هو عدد مرعب حقاً ـ فإنّ استنتاجاً مماثلاً هو استنتاج مبرر بالتأكيد ، ذلك أن إخفاقهن شبيه من الناحية السيكولوجية بالاخفاق الصارخ لدى الرجال المصابين بالعنّة . والنساء لا يشعرن بحاجة شديدة إلى تبخيس الموضوع الجنسي ، ولكن يربطن في أفكارهن بين النشاط

(*) ـ انظر كتاب فرويد ، ثلاث مقالات في نظرية الجنسية ، المقالة الثالثة ، « استحالات البلوغ » ، الفقرة الخامسة ، « العثور على موضوع » ، ص 98 ـ 103 في الترجمة العربية .

الجنسي وشيء ما محرَّم ، وبالتالي لايقوين على حلّ العقدة بين الحظر Prohibitionوالجنسية . وحالة التبخيس لدى الرجال يقابلها مفعول الكتمان Concealmentلدى النساء .

إن نظرية فرويد هذه هي أفضل ما قُدِّم لنا في تفسير كثير من السمات المحيّرة في الحياة الجنسية لدى الرجال والنساء . ولكنها دون شك ليست أفضل ما يمكن الحصول عليه . فهي تبسّط الوضعية السيكولوجية بردّ جوهرها إلى العواقب الانفعالية الناجمة عن حاجز غشيان المحارم . ولا تأخذ في الحسبان وجود عوامل انفعالية أخرى تسهم في انفصال الحنان والجنس ،وهي عوامل سوف نبحثها لاحقاً . إن تابو المحارم لهو جسر أضعف بكثير من أن يقوى على حمل هذا العبء الثقيل . كما أننا نعارض هذه النظرية أيضاً في الأساس الذي افترضه فرويد ، والذي مفاده أن الحب أو الحنان أقدم من الغريزة الجنسية ، ذلك أننا نعتقد أن الحب هو الضيف الذي حلّ متأخراً جداً على مائدة الحاجات البشرية . ولا بد من الاشارة إلى أن متطلبات الدوافع الأنوية لم تؤخذ بعين الاعتبار في هذا التصور الفرويدي .

سوف أقتصر هنا على إعادة تقييم هذه النظرية انطلاقاً من أساسها الخاص ، أي حاجز غشيان المحارم ، والذي يبدو لفرويد مسؤولاً بمفرده عن الاخفاق وعن تبخيس الموضوع الجنسي . إن الحالة الأوديبيةOedipus Situation عند فرويد والمحللين النفسانيين هي القالب الذي يصوغ معظم تقلّبات الحياة الجنسية لدى البالغين . وأنا لاأشك بما لهذه الحالة من تأثيرات قوية ، ولكنني أنكر أنها من طبيعة جنسية فقط . ولقد بدا لنا الجنس بمثابة حاجة بدئية ، مشروطة كيميا ـ حيوياً bIOCHEMICALLY ولها طابع فيزيائي محض ، وتمكن مقارنتها على أفضل وجه بحاجات الطفل الحيوية الأخرى من أكل ، وتنفس ، وإطراح . ومن المؤكد أن التظاهرات الجنسية لدى الطفل ليست أول التظاهرات التي تثير اهتمام الأمهات والمّربيات . فهناك تظاهرات أكثر إلحاحاً مرتبطة بخير الطفل ورفاهه . كما أن تربية الطفل تبدأ بالاهتمام ، لا بأعضائه التناسلية ، وإنما بمثانته ومصرّته SPHINCTER . وعلى الطفل أن يتعلم ضبطهما إلى حد معين . وفي هذه المهمة تكمّن النجاحات والاخفاقات الأولى للتربية . ففي البداية يذعن الطفل لهذه

الدوافع كلما شعر بتحفيزها ، ولكنه يتعلم لاحقاً أن يتبول ويتبرز في وقت ومكان محددين .

إن نوعية الاهتمام ، وضروب الكفّ والتحظير ، التي تُحاط بها هذه الوظائف من قبل الأم والمربية ، سوف تشكّل نموذجاً أيضاً لاتجاهات أخرى من السلوك . ففي البداية يلوّث الطفل كل شيء ، ويفضّل تلويث الأشخاص الذين يميل إليهم كي يقوم هؤلاء أنفسهم بتنظيفه . وهنا يحصل تغيرّ هام . حيث تبدو الأم كارهةً لأن تُلُوث ، وتنزعج إذا ما وسّخها الطفل ، أو وسّخ نفسه ، أو ثيابه . وتلّقن الأم الطفل تحقيق هذه الوظائف فقط حيث تريد وحين تريد . وهكذا فإن الضغط يتركّز الأن على متطلبات الطفل الطبيعية ، وعليه أن يبذل جهداً كي يقصرها على أوقات وأمكنة محددة .

لا يعرف علماء البيولوجيا والسيكولوجيا حتى الآن ، ورغم البحث كله ، سوى القليل عن طبيعة الدافع الجنسي . وبمقارنته مع عمليات الاطراح نكون قد فعلنا أقصى ما بوسعنا في فهم طبيعته . ومما له دلالته وأهميته أن الاعضاء الجنسية مجاورة لاعضاء الاطراح ومتصلة بها صميمياً من الناحية التشريحية . فوظائف الاطراح تبقى هامة . والتدريب على المرحاض TOILET TRAININGليس واحداً من أول التأثيرات التربوية التي يختبرها الطفل وحسب ، وإنما هو يشكّل أيضاً نموذجاً للعديد من الارتكاساتREACTIONSالمتصلة بحاجات فيزيائية أخرى . فالطريقة التي ترتكس بها الأمهات والمربيّات لإخفاقات الطفل في ضبط هذه الحوافز سوف تخَلّف انطباعاً عميقاً لديه . كما أن ارتكاسات سلبية مشابهة سوف تواجه لاحقاً التعبيرات الأولى عن الدوافع الجنسية المبهمة ولكن القوية لدى الطفل .

لا يرفض المحيطون بالطفل تلويثهم وحسب ، بل ويُبدون أيضاً معارضة شديدة اتجاه الطفل الذي لا يذعن لرغباتهم المتعلقة بوقت الاطراح ومكانه . وهؤلاء الأشخاص سوف يعاملون أيضاً عبث الطفل بأعضائه الجنسية كما عاملوا اهتمامه بأعضائه الاطراحية ووظائفها . ويبدأ الطفل بالمطابقة بين أعضاء الاطراح وأعضاء الجنس ، وكأنما هي تنتمي إلى المنطقة ذاتها ، كما تعُلّمنا البيولوجيا فعلاً . وحتى في « النظريات » التي يبينها الأطفال عن النشاط الجنسي الغامض لدى البالغين غالباً ما تكون عمليات الاطراح مختلطة مع العمليات الجنسية المحضة . ويمكن ملاحظة

الأصداء الباهتة لمثل هذا التصور الطفلي بعد فترة طويلة من حياة الانسان . خذ ، مثلاً ، تعريف دي موباسان للزواج باعتباره « Un changement des mauvaises humeurs pendant le jour et des mauvaises odeurs pendant lanuit »(*)

هكذا يصبح التدريب على المرحاض رائداً للتدريب الجنسي . إنه القالب الذي يصوغ ضروب الكفّ والتحظير الجنسية . كما أنه من أوائل التابوات لدى الطفل . والتابو الجنسي لا يتلوه زمنياً وحسب ، وإنما يتبعه أيضاً كما يقتفي التائه الآثار التي خلفّها على الثلج من سبقوه . ومما له دلالته السيكولوجية أن النشاطات الجنسية والاطراحية تعتبر بذيئة عادة وتُحاط بالسرية . وعلى هذا النحو تكون التربية الاطراحية والتدريب على المرحاض قد أخذت قيمة النموذج بالنسبة للحياة الجنسية اللاحقة . فالأم والأخت ، وبدائلهما فيما بعد ، وأفراد العائلة الآخرون ، يصبح محظوراً مسّهم كما كان محظوراً تلويثهم من قبل . وهؤلاء الأشخاص يُبدون أول ارتكاسات الاستنكار والاشمئزاز تجاه الطفل العنيد أو الذي لا يخجل ، وسوف يختبر الصبي الصغير والبنت الصغيرة ارتكاسات مماثلة عندما يقاربان هؤلاء الأشخاص بنواياهما الجنسية الطفلية ، وذلك لأن هؤلاء الأشخاص صارت مقاربتهم محظورة

إن انفعالات الخجل والسرّية ، التي تلّقنها الطفل في ميدان الاطراح أولاً ، سوف تنزاح إلى حقل جديد . وهكذا يضع التدريب على المرحاض أساساً للمصاعب الجنسية اللاحقة . إن أسرار غرفة النوم هي من الناحية السيكولوجية تالية لأسرار المرحاض ، ذلك أن هذه الأخيرة هي أول ما يعلّم الطفل الاحتشام . ومهما تكن السرية والخجل المُضْفيَان على الحياة الجنسية فإنهما تاليان لهذه الارتكاسات الأبكر ، والتي تتعمم في النهاية بحيث لا تعود مقتصرة على عمليات الاطراح وإنما تطال الجسد العاري عموماً ، بل وتطال أيضاً التفكير بالوظائف الجنسية والحديث عنها . وتمتدّ في بعض الحالات إلى ميدان لا يتصل إلا بصورة واهية بالمجال الأصلي . ولقد قيل عن

*) ـ بالفرنسية في النص الأصلي : تبادل للأمزجة السيئة في النهار وللروائح الكريهة في الليل .

سيدة محتشمة أنها تحمّر خجلاً حتى عندما تغيّر رأيها .

هكذا يعبّد التدريب على المرحاض الدرب أمام مصاعب الحالة الأوديبية التي يعتبرها المحللون النفسانيون المصدر الوحيد لكل تقلّبات الجنس . وهم ينسون أن وظائف الاطراح الحيوية تصوغ نموذجاً للسلوك الجنسي قبل فترة طويلة من انقضاض الحالة الأوديبية على الطفل . إن إرجاع كل المصاعب إلى هذا الأصل الواحد لهو فعل اعتباطي ، وقول أقلّ علمية من أن يمتهن عقولنا .

إن تابو النشاط الجنسي الباكر هو تجديد لهذا التابو الأبكر . وبالطبع ، فإن الدوافع الجنسية تُوجَّه في البداية نحو الأشخاص ذاتهم . فالطفل ليس لديه موضوع جنسي « مختار » ، كما يعتقد المحللون النفسانيون . ودافعه الجنسي يتخّذ الأشخاص الأقرب في وسطه بمثابة موضوعات له ، وبالتالي فإنه يصارع المصاعب التي كان قد صادفها من قبل . وما يتوجب إيضاحه ليس أن دافع الطفل الجنسي يُوجَّه نحو الأم والأخت ، وإنما طبيعة الكفّ الذي يواجهه عند المقاربة . فهنا نجد أن نفس الأشخاص الذين خبر الطفل رفضهم ،وتوبيخهم ، واشمئزازهم هم نفس الأشخاص المحظّر مسّهم الآن لسبب مختلف . إن الفصل بين الجنس والعاطفة يجد أصله هنا .

تبقى مشاعر الطفل العاطفية مع أفراد العائلة ، لكنها الآن منفصلة تماماً عن الدوافع الجنسية . فهذه الأخيرة لا يمكن توجيهها إلا إلى الغرباء ممن هم ليسوا موضوعات محرَّمة ـ أو ليسوا كذلك بالدرجة ذاتها . أما الأمهات والأخوات فهم أشخاص محظور مسّهم ويخجل الطفل أمامهن من حاجاته الإطراحية ، ومن ثم من حاجاته الجنسية لاحقاً ، ويبقين موضوعات للحنان . لا بل ان موضوعات الحب يتمّ اختيارها في بعض الأحيان على صورتهن من حيث التشابه في المظهر والطبع . ولقد شكت فتاة فلاحة نمساوية بسيطة ذات مرة لأمها قائلة : « لقد نلتِها بسهولة ؛ تزوجتِ أبي ، أما أنا فعليّ أن أتزوج من رجل غريب » . إن هذه الشكوى لا تتعلّق إلا بالصعوبة التي تشعر بها الفتاة في حبّها لرجل غريب . ولا يجب أن نفترض أنها قصدت أنّ من الأسهل إقامة علاقات جنسية مع والدها ، لعلها تتمنى بكل جوارحها أن تتزوجه ، وأن تحظى برفقته الحنون ، ولكن دون أي اتصال جنسي . إن حسّ الألفة

والحميمية الذي يكتسبه الفرد تجاه حلقته الاجتماعية الأولى غالباً ما يحدد على هذا النحو اختيار موضوع الحب . ولكن مثل هذه الألفة قد تشكّل بصورة لا واعية عائقاً أمام الحسّ الجنسي . فحقيقة أن امرأة ما قد تذكّر المرء بأمه أو بأخته غالباً ما يكون لها تأثير مانع أو كافّ على القدرة الجنسية .

وإنه لصحيح بما فيه الكفاية أن تابو المحارم أيضاً يكون فاعلاً هنا ، ولكن خلفه يقبع الكفّ الأقدم على الإطراح ، والذي يصبح بصورة لا واعية جزءاً وطرفاً من الكفّ الجنسي . ويمكن للمرء أن يلاحظ ، لدى تحليل النساء الباردات جنسياً ، أن الصعوبة الجنسية تعبّر عن ذاتها في عدم المقدرة على « تبليل الرجل » ، وكأن الإفرازات الجنسية مطابقة للإفرازات الأخرى . وهكذا يكرّر الكفّ الطفلي ذاته في حقل الجنس . أما الخجل والقلق ، المتجذران بصورة لا واعية في مفاعيل التدريب على المرحاض ، فيكونان هنا منزاحين على نحو واضح إلى ميدان مجاور .

على السيكولوجيين أن يفرّقوا بين مصاعب الحب ومصاعب الجنس . فهذه الأخيرة إحياء وتجديد للإشكالات التي عاناها الطفل في الأصل مع التدريب على المرحاض ومع الأشخاص المتحكّمين بتربيته . فالتابوات المُقْحَمة باكراً بقصد غرس النظافة والأناقة تصبحح أنماطاً أصلية prototypes للسلوك الجنسي لدى الرجال والنساء . وإذاً ، فإن الأشخاص الذين هم موضوعات محرّمة فيما يتصل بالإطراح يصبحون لاحقاً أشخاصاً محظوراً مسّهم باعتبارهم موضوعات محاطة بتابو غشيان المحارم ، كما تصبح العمليات الإطراحية ذاتها نماذج للنشاط الجنسي . وهنا نجد أصل النظرة التطهّرية إلى الجنس وحقيقة أنه غالباً ما تُستخدم التعابير ذاتها لكلتا الوظيفتين (الطهارة الجنسية ، الجنس كدنس ، كقذارة ، « قصص وسخة ») . كما أن العفّة chastity تجد نمطها الأصلي في الأناقة وحسن المظهر ونظافته . ولقد ختم مدير مدرسة إيتون إحدى عظاته عندما كان دزرائيلي تلميذاً هناك قائلاً : « والآن ، ياأبنائي ، كونوا أنقياء القلب ، ذلك أنكم إنْ لم تكونوا كذلك فسوف أجلدكم حتى تصيروا » . والخلاصة هنا أن من يوفّر العصا في التدريب على المرحاض سوف لن ينعم أبداً بمتعة رؤية أطفاله أنقياء القلب ، مع أن من المشكوك فيه أنه سوف يبلغ هذا الهدف

بأية وسيلة من الوسائل .

إن تأثير التدريب على المرحاض والذي يلعب دور القالب بالنسبة للموقف الجنسي لا يتحكّم بالعلاقة بين الأشخاص وحسب ، وإنما ، فوق ذلك ، يتحكّم أيضاً بالفعالية الجنسية . ذلك أن أنواع الكفّ تنتقل إلى ميدان جديد في سيكولوجيا الرجال العنينين والنساء الباردات الذين يعتبرون الجنس بمثابة شيء منحط ، شأن البوْل والبراز ، وبمثابة شيء يدعو إلى الخجل كما فعلوا في طفولتهم تجاه تلك الوظائف الأخرى .

ويتحكّم هذا النموذج بسيرورات التحفّظ والانطلاق ، التكتّم والصراحة ، الإقدام والإحجام في النشاطات الجنسية الصميمية ، كما تحكّم في نشاطات الإطراح . وهو المسؤول ، إلى حدٍّ بالغ ، عن الانفصام بين الحب والجنس ، والذي يعاني منه كثير من الرجال : فهم حيث يحترمون ، لا يمكنهم القيام بوظائفهم الجنسية ، وحيث يمكنهم أن يستمتعوا دون كفّ ، لا يمكنهم احترام شريكاتهم . وتغدو النساء المعتبرات بمثابة بدائل للأم والأخت محظورات جنسياً لأن تابو الإطراح القديم ينتزع الرغبة الجنسية بصورة لا واعية ، ويجعل هؤلاء النساء المُحترمات غير ملائمات كموضوعات جنسية . إن احترامهن يكبح الرغبات الجنسية ؛ فهن نقيّات ولا يمكن تدنيسهن . أما أمام النساء الأخريات فلا حاجة للخجل ، فهن غير محترمات ولا تمكن مقارنتهن أبداً مع الأم والأخت .

وإذا ما انزاح موقف التجنّب الجنسي لبدائل الأم والأخت وتعمّم ، فإنّ العنّة النفسية تجاه جميع النساء تكون هي النتيجة . وفي كثير من الحالات يفرّق الرجال بصورة لا واعية بين نساء للاحترام ونساء للشهوة lust ، بين اللواتي يمكن تخيّلهن في الفراش واللواتي لا يمكن التفكير بهن أبداً بهذه الطريقة . أما الحب فإنه يقدّم تصنيفاً جديداً يتجاوز هذا التفريق ويخلق موضوعاً تتحد فيه الرغبات الجنسية والعاطفية . وعندئذ يتمّ التغلب على هذا الانشقاق . وتقوم قوة جديدة بكنس النزاعات والمصاعب القديمة .

إن الحالة الأوديبية هي وريث النزاع القديم الذي يخلق حاجزاً قبل أن يكون

للدافع الجنسي من القوة ما يكفي للتعبير عن ذاته . وعملية التدريب على المرحاض هي التي تصوغ موقف الفرد من الجنس لاحقاً . وهكذا فإن الخجل ، والخوف ، وعدم الثقة تعاود الظهور ، طالعة من العالم السفلي . ونحن لا ننكر قيمة مفهوم حاجز غشيان المحارم ولكننا ننكر قيمته باعتباره التفسير الوحيد للانفصال بين الجنس والحنان .

إن فكرة الصراع بين العاطفة والجنس ، والتي نصادفها هنا للمرة الأولى ، سوف تعاود الظهور في الفصول اللاحقة . وإليكم الآن قصة شاعت في فيينا في عشرينات هذا القرن تلقي الضوء على موضوعنا : رجل ، تعتعه السُكْر ، قال فجأة لصديقه وهما عائدان من حفلة يوم العطلة أنه يريد زيارة المبغى . فما كان من الصديق إلا أن اغتاظ وراح يوبّخه مذكّراً إياه بأنه رجل متزوج ومع ذلك يريد زيارة بيت الدعارة . ولكن الأول صاح مهتاجاً : « انظر أيّ وغد أنت ! أتحسب حقاً أنني أوقظ زوجتي العزيزة في الثالثة صباحاً كي أوفّر بضع كرونات ؟ » إن الدافع الجنسي ، في هذه القصة المنطوية على مفارقة ، لا يبدو منفصلاً تماماً عن العاطفة ، وقوة لها شأنها الخاص وحسب ، بل ويقف أيضاً في مواجهتها وعلى نحو عنيف .

نقطة الإلتقاء

إنَّ من يعاني الجوع الشديد لا يسأل عن أطباق خاصة وإنما عن شيء ما للأكل . وهكذا الدافع الجنسي البشري ، إذا ما أُثير ، فإنه يكون مستعداً لاتخاذ كلّ ما في متناوله بمثابة موضوع . وفي الحقيقة نحن لا نملك كلمة ـ حقاً ليس هنالك كلمة ـ نشير بها إلى هذا الموقف . وإذا ما كانت لدينا كلمة ، فإنها تعني ما تعنيه كلمة القارت **Omnivorous** ، آكل كل شيء ، فيما يتعلّق بالطعام . (ودعونا نأمل من القدر الرحيم أن يحول دون نحت كلمة مثل **Omnilibidinous**(*) ، والتي هي المقابل الأقرب(**)) . ولنفترض أنَّ ثمة طريقة ما لإثارة الدافع الجنسي الخام ـ مثلاً من خلال التنبيه الميكانيكي الموضعي المتواصل أو بتأثير عقاقير باهيّة aphrodisiac drugs معينة . وعندئذ فإن الفرد المُنبَّه بهذه الطريقة سوف يرضى بأية وسيلة تخلّصه من هذا الحافز الذي لم يعد من الممكن تحمّله . وبالتالي فإن الدافع يبدو فراراً من شيء ما أكثر منه اندفاعاً نحو شيء ما ـ محاولة للهرب من الضغط العضوي .

وبالطبع ، فإن الدافع الجنسي سيتركز لاحقاً على موضوعات مختارة ، ومن الطبيعي أن تكون هذه الموضوعات هي الأقرب إلى متناول الطفل . وهنا تتاح لنا فرصة إعادة بحث دور وأهمية ما يدعى بالحالة الأوديبية . وكما هو معروف إلى الآن ، فإن هذه الحالة تتسم بالرغبة الجنسية لدى الصبي الصغير تجاه أمه وبنزوات الكراهية ضدّ والده

(*) ـ بمعنى : ناكح كل شيء .

(**) ـ من الواضح أن في ذهن الكاتب هنا ما قاله فرويد في مطلع مقالته الأولى من « ثلاث مقالات في نظرية الجنسية » : « إن وجود الحاجات الجنسية لدى الإنسان والحيوان يُعبَّر عنه في علم الحياة بافتراض « غريزة جنسية ». ، على مثال الجوع في غريزة التغذية . ولما كانت اللغة تعوزها لفظة تقابل كلمة « الجوع » فإن العلم يستخدم كلمة « اللبيدو » بهذه الصفة » . انظر الترجمة العربية ، ص 33 .

الذي يُعْتَبر بمثابة منافس ، ودخيل ومتطفل . وهذان الموقفان كلاهما لا واعيان . وثانيةً نقول أنه لا حاجة لمناقشة الوقائع . فالحالة الأوديبية تمكن ملاحظتها في أصدائها السيكولوجية لدى أي طفل يترعرع في نموذجنا الثقافي ، كما يمكن لأي سيكولوجيّ مدرَّب رؤية بقاياها في أعراض واستيهامات العصابيين والأسوياء .

إن ما يتوجّب مناقشته هو تفسير فرويد لهذه الوقائع التي اكتشفها ، وكذلك ما يضفيه عليها من أهمية . وهنا أيضاً علينا أن نفرّق بين النزوات الجنسية البدئية لدى الصبي الصغير ونزوعاته العاطفية والتملكية . ففي طور معين من نموه تكون هذه النزوات جميعها موجَّهة نحو أمه ، ولكن النزوات الجنسية الخام ، بحد ذاتها ، ليس لها بالتأكيد تلك الأهمية الانفعالية التي يضفيها فرويد عليها في هذه الحالة . فهي وحدها لا تؤدي أبداً إلى الحالة الأوديبية . ثم إن حب التملّك والغيرة لدى الطفل ، هذا الهوى Passion الذي يُبديه في بعض الأحيان والذي سرعان ما يُخْفَى ويُقْمَع ، هو ناجم بالطبع عن عاطفته تجاه أمه . ولا يمكن أن نقول أنّ الدافع الجنسي في تعبيره الأوليّ هو المسؤول عن نزوعات الغيرة والتمرد ضد أبيه ، وإنما تضافره مع الحنان والرغبة في حيازة الموضوع .

إنّ التباري والتنافس الباكرين هما بالأحرى ناجمان عن قوة دوافع الأنا لدى الطفل ، وعن بدء الصراع من أجل الاستقلال ، وعن إرادة الانتزاع Will To conquer ، ورغبته في أن يكون موضع إعجاب . إنه يبتغي شقّ طريقه ، وعندما يتعلّق الأمر بأمه فإن قتاله من أجل نيل الحظوة لديها ومن أجل إصراره على أنه صاحب هذه الحظوة ، يبدو بمثابة مؤشر على أنه قد يجد طريقه مع السيدات في حياته اللاحقة . وها نحن من جديد أمام حالة يشوّه فيها الاستخدام الخاطىء لكلمة « جنس » عرض الوقائع النمطية في حياة الطفل الانفعالية .

إنّ الأهمية التي يضفيها التصور التحليلي النفسي على الحالة الأوديبية لا يمكن مقارنتها إلا مع أهمية الوجود الكليّ للكائن الإلهي في المعتقد الديني ، فعقدة أوديب Oedipus complex ، تبعاً للمحللين النفسانيين ليست موجودة دائماً وحسب ، وإنما هي فاعلة بصورة لا واعية دائماً أيضاً . إنها تخترق بصورة لا واعية كل نشاط إنساني تقريباً .

وهذا يذكّرنا بالسؤال الورع الذي طرحه يهوذا هالي : « آه ياربّ ، أين تكون ، وأين لا تكون ؟ » وفي الحقيقة ، إن الحالة الأوديبية لا تكتسي أهميتها إلا باعتبارها طوراً انتقالياً يمرّ عبره كل طفل يعيش في نموذجنا الثقافي . انها ، ولنستخدم مقارنة شائعة ، مثل نقطة التقاء السكك الحديدية التي لا بدّ أن تمرّ عبرها كل القطارات ، قادمةً من محطات مختلفة وماضيةً في اتجاهات متباينة . فعند هذه النقطة من تطور الطفل الانفعالي تلتقي الدوافع الجنسية والنزوعات من جانب الأنا . ويخلط كثير من المحللين النفسانيين بين نقطة الالتقاء هذه وبين نهاية الخط . وما أن يصل قاطعو التذاكر هؤلاء إلى المحطة حتى يأمروا المسافرين ، بحماسهم المنطوي على خداع للذات : « الجميع خارجاً » .

الخلط بين الجنس ودوافع الأنا

من المؤسف أننا لا نملك كلمة ملائمة للتعبير عن طاقة الدافع الجنسي . فكلمة sensuality(*) فضفاضة كثيراً . والتعبير العلمي هو اللبيدو . والأدقّ القول أنه كان اللبيدو ، فالتوسيع غير المبرّر لهذا التعبير من قبل التحليل النفسي جعل الكلمة غير قابلة للاستخدام .

عندما أقام فرويد أولى نظرياته في الجنس ، لم يكن قد تمّ بعد توسيع معنى اللبيدو بحيث يشتمل على الحب ، والعاطفة ، والاهتمام . ولذا فإنّ قسماً كبيراً من نظرية اللبيدو الحالية يمكن اعتباره بمثابة تاريخ لتطور الفرد الجنسي كما يراه فرويد .

وليس هذا مجال إعادة بحث كل مفاهيم هذه النظرية . ولذا لن نناقش هنا سوى بعض الأفكار وبصورة موجزة . لقد بيّن لنا فرويد أنّ الأطفال كائنات جنسية . ومن بين فضائله الكثيرة أنه بوّأ حياة الطفل الجنسية مكانها بين موضوعات البحث السيكولوجي . وقد لاحظ تعبيرات مختلفة للجنسية الطفلية ؛ أعني ، أنه لاحظ كثيراً من الارتكاسات المُهمَلة والمثيرة للانتباه لدى الطفل وفسّرها على أنها جنسية . فهل هي جنسية فعلاً ؟ هذا هو السؤال هنا . لقد بوّأ فرويد الحياة الجنسية الطفلية مكانها في ميدان السيكولوجيا ، لكنه بالغ في أهميتها إلى حدّ بعيد بحيث بات علينا أن نعيدها إلى مكانتها الحقيقية . فهل ارتكاسات الطفل ، التي يصفها فرويد ، جنسية ، وهل هي جنسية وحسب ؟

ميّز فرويد تشكيلة من الحوافز الجنسية الجزئية partial sex – urges التي تتطور على نحو منفصل في مرحلة الطفولة إلى أن تشكّل في النهاية قوام configuration الجنسية الناضجة لدى البالغ . ويقول فرويد ، إنّ واحدة من أولى التظاهرات هي المصّ

(*) الحسيّة ، الشهوانية .

sucking عند الرضيع . فالمصّ الايقاعي من قبل الأطفال لأصابع أيديهم ، أو أقدامهم ، أو غيرها من الأجزاء يبدو لفرويد وسيلة يتأتّى للطفل من خلالها إشباع جنسي . وهذه العملية ، والتي تُجرى بتركيز واضح ، تُفضي إما إلى الرقاد أو إلى ارتكاس شبيه بالرعشة إلى حد ما(*) . وشفتا الطفل تسلكان جنسياً شأن المناطق الشهوية sensitive erogenic zones . وإشباع هذه المنطقة الشهوية مرتبط أولاً بإشباع الحاجة إلى التغذية . فالنشاط الجنسي يجد المؤازرة بادىء ذي بدء في الوظيفة التي تعمل من أجل البقاء ، ولكنه يستقّل عن هذه الوظيفة لاحقاً . ويوجز فرويد تصوره كما يلي : « ومن رأى رضيعاً يتراخى ، بعد أن شبع من الثدي ، وينام متوهج الوجنتين ، مبتسماً ابتسامة الغبطة ، فلا بدَّ أن يتفكّر أن تلك الصورة تظلّ نموذجاً للتعبير عن الإشباع الجنسي في الحياة فيما بعد »(**) . ولقد رأيت هذا المشهد مرات كثيرة ، وذكّرني أكثر برجلٍ يتراخى على كرسيّه بعد أن جرع زجاجة من الخمر الممتاز والتهم غداءً فاخراً . حاولتُ أن أستثير لديَّ الصورة الأخرى ، الصورة الجنسية ، لكنها بدت مُصطَنَعة . وكان عليَّ أن أركّز قدرتي على التخيّل ، في حين تتوارد صورة الرجل الذي شرب وأكل على نحوٍ عفوي . ورغم أنّ المقارنة قد تبدو متكلّفة إلا أنني لا أستطيع تفاديها .

ليس هذا إلا مثالاً مفرداً ، ولكنه نموذجي ، عن ضروب سوء التفسير السيكولوجي في نظرية الليبدو . فالوقائع موجودة ، لا شكّ في ذلك . ولكن المشكوك فيه ، بل وما يجب الشك فيه ، هو التفسير الذي يضفيه المحللون النفسانيون عليها . فهم يلصقون عليها بطاقات للتعريف خاطئة .

يؤكد فرويد أن الجنسية لدى الطفل تُبدي علائم الانحرافات الجنسية في كل أشكالها وتعبيراتها البدئية . والطفل ، تبعاً لفرويد ، **منحرف متعدد الصور - polymorph preverse**(*) . بيد أننا لا نستطيع أن نعدّ الطفل منحرفاً متعدد

*) - ص 65 من الترجمة العربية لكتاب « ثلاث مقالات في نظرية الجنسية » .

**) - انظر ص 66 منه .

*) - انظر ص 73 من « ثلاث مقالات في نظرية الجنسية » .

الصور لأن ذلك يعني سحب مصطلح ليس له قيمة إلا فيما يخصّ جنسية البالغ إلى حقل لا يمكن استخدامه فيه . وعند ذلك يمكنك أن تدعو الرضيع الذي يلوّث حفاضاته قذراً ، أو الوليد الذي يمصّ ثدي أمه سكّيراً . إن المحللين النفسانيين يستسلمون ، في حالاتٍ مثل هذه ، لإغراء التشابه .

ويؤكد فرويد أن الجنسية لدى الطفل تكون في البداية مرتبطة مع حاجات حفظ البقاء وأنها تنفصل عنها لاحقاً ، لكن النقطة الهامة هنا هي أنَّ هذه الحاجات تكون موجودة أولاً ، وتمنع الحاجات الأخرى من الظهور ما دام لها الدور المهيمن . ومما لا شك فيه أنّ وقتاً مهماً يمرّ قبل أن تستيقظ الحاجة الجنسية حتى في الحياة القصيرة للذبابة المسماة day – fly(*)

إن الحاجة للطعام ، وحوافز التبول والتبرز ، وغيرها من الحاجات العضوية تتحكّم بحياة الطفل أكثر بكثير من الدافع الجنسي . فهذه الدوافع هي التي تحمي الوجود وتحفظه ، والتي تهيّء الفرد للكفاح في الحياة . والتي هي أكثر حيوية وإلحاحاً من الجنس بالنسبة للطفل . ومن غير المحتمل تماماً أن تعطي الطبيعة للدافع الجنسي مثل هذا الدور المهيمن قبل أن يكون الفرد قادراً على العيش بصورة مستقلة .

أما الأطوار التي وصفها فرويد في التطور الجنسي للطفل فيمكن أيضاً ، وعلى نحو أدقّ ، اعتبارها بمثابة أطوار لتطور الأنا . خُذ ، مثلاً ، الطور الجنسي القبتناسلي pregenital sexual phase، والمسمّى بالافتراسي cannibalistic ، والذي لا يكون فيه النشاط الجنسي ، كما يقول فرويد ، « قد انفصل بعد عن تناول الطعام » . ويرى فرويد أن موضوع أحد النشاطين هو موضوع الآخر ؛ والهدف الجنسي ينحصر في ابتلاع الموضوع incorporation(**) . ولكن لماذا لا نؤكّد على حقيقة أن الطور الافتراسي هو بالأحرى طور من أطوار الدوافع الأنويّة ، جهد لإدماج الموضوع بالذات ، كما نفعل حين نأكل ؟ فأنا لا أجد أية ضرورة لأن ندعو نزوع الطفل إلى وضع كل شيء في فمه

(*) - ذبابة لا تعيش سوى يوم واحد فقط .

(**)- انظر ص 78 - 79 من « ثلاث مقالات في نظرية الجنسية » .

نزوعاً جنسياً . ذلك أن الهدف ، في هذه الحالة ، هو الأكل دون شك . أما الطور الثاني فهو الطور السادي(*) sadistic phase . ويكون النشاط الآن موجّهاً نحو الشخص الذي سيكون موضوعاً للعدوان aggression والقسوة cruelty ، فهل يمكن أن ندعو مثل هذا الدافع الغريزي دافعاً جنسياً على نحو خاص ، من حيث طابعه ؟ إن من الممكن أن يكون له هدف جنسي أيضاً ، وقد لا يكون . فلا حاجة إذاً لتفسير القسوة والعدوان الموجودين لدى الطفل بهذه الطريقة . أليس من الملائم أكثر أن نقول أن المحّرضات الجنسية المبهمة stirrings تنسلّ لاحقاً إلى ميدان نزوات التملّك والعدوان ؟ أما في الطور الثالث ، فإن الحياة الجنسية للطفل تكون قد تحدّدت مسبقاً بهيمنة المنطقة التناسلية . وتكون مشاعر الطفل عندئذ مشابهة تقريباً لمشاعر الرجال والنساء .

أنا لا أنكر إمكانية وجود بعض المسحات الجنسية المبهمة في الأطوار « القبتناسلية » من تطور الطفل ، ولكنها ليست مهمة ويمكن تجاهلها قياساً بما يكون لها من معنى عندما ترتبط مع دوافع الأنا . وبالطبع ، فإنك إذا ما وسّعت معنى كلمة جنس ، بحيث تشتمل على نشاط ، وتنشيط ، المنطقتين البولية والشرجية ، يمكنك حينئذ أن تجد دلالة جنسية في كثير من مشاعر الطفل . لكن الأحرى بنا هو افتراض أن الدوافع الجنسية مشتقّات derivatives متأخرة من ضرورة الإطراح البيولوجية ، وليس العكس . فقد يكون أيضاً لحركة تنفسية معينة دلالة جنسية بحيث يمكنك أن تدعوها « رعشة تنفسية » ، لكنني أؤكد أن التنفس كان ، ويبقى ، حاجة أكثر حيوية بكثير .

وبالطبع ، فإن المُحبّ في بُرَحائه paroxysm يمكنه أن يرغب بأكل محبوبته ، لكن الأكل ليس له في الأصل أيّ معنى جنسي ، والقبائل الآكلة لحوم البشر في وسط استراليا لم تكن تُبدي أية إيماءات جنسية عند التهامها للمبشّرين البيض . وحقيقة أن الصبيان الصغار يتمنون أن يكونوا سائقين لا تعني بالضرورة أنهم يبتغون التمتّع بالاشباع الجنسي المتأتي من الحركة أو أنهم ينالون إرضاءً جنسياً من الحركة السريعة . أليس من الأسهل أن نفترض أنهم يتمتعون بحسّ التحرك السريع كنوع من تضخيم قوة الركض لديهم ، وما يتّصفون به من خفة في الجري ؟ ألا يتحدّد اهتمام الطفل بوظائف الإطراح

(*) - انظر ص 79 منه .

بالاهتمام الذي يُبديه والداه بهذه العمليات البيولوجية أكثر مما يتحدد بفضوله الجنسي الخاص ؟

ولقد أكّد فرويد والمحللون النفسانيون أنّ الطابع الجنسي لكل هذه الظواهر يتجلّى في أعراض العصاب neuroses والذهان psychosesلدى البالغين ، حيث تبدو لديهم كبقايا من الحياة الجنسية الطفلية . وبالطبع ، فإنَّ هذا التفسير لا يكون صائباً إلا إذا نقلنا المعنى الموسَّع لكلمة جنس إلى هذا الميدان أيضاًوإلا إذا صَمَمْنا آذاننا عن كل الاعتراضات على هذا التضخيم غير المبرّر لمعنى الكلمة . إن الوقائع التي لاحظها فرويد موجودة فعلاً ، لكنه فسّرها بصورة سيئة وقيّمها على نحو خاطىء . وقد بالغ المحللون النفسانيون في أهميتها ضمن حياة الفرد إلى حدّ هائل ، وذلك بإلحاحهم على الدافع الجنسي وإهمالهم أثر النزوات الأنويّة . وفي بعض الأحيان يتلقّى قارىء الكتب والمقالات التحليلية النفسية انطباعاً بأن حفظ الذات ليس قانون الطبيعة الأول ، وإنما الثاني ، والثانوي .

لو أن الجنس ، هذه الحاجة الملحّة للتخلص من توتر عضوي ، يظهر منعزلاً لكانت الحياة البشرية أكثر سهولة بكثير . وما كان ليوجد عندها سوى قلّة قليلة من الصراعات الانفعالية ، وما كانت نظرية اللبيدو لتظهر على الاطلاق . أما التعقيد فإنه يبدأ عندما تمتزج الدوافع الجنسية مع نزوعات الأنا .

طرق فرعية

يكمن الاستعداد disposition للانحراف ، من وجهة نظر فرويد ، في الطابع الأصلي للدافع الجنسي البشري[1] . وهكذا تكون الانحرافات مركّبات فطرية للجنسية . أما السلوك الجنسي السويّ فيتطور من خلال التقييدات التي تفرضها التغيرات العضوية وضروب الكفّ الفيزيائية في سياق النضج . فقوى الخجل والاشمئزاز ، وضروب الكفّ التي تضعها التربية في طريق الطفل الذي كان منحرفاً متعدّد الصور في الأصل ، تعمل كتأثيرات كابتة suppressive · ومن الواضح أن تعبير « انحراف » **perversion** هو تعبير اصطلاحي . وسأورد مثالاً ، يوضح المعنى تماماً ، هو استيهام مريض كانت أمه معتلّة اعتلالاً خطيراً . إنه يراها ميتة في كفنها ويشعر بنزوة شديدة لأن يعضّ يد الجثمان الباردة الشاحبة . وتترافق هذه النزوة مع مشاعر قوية من التهيج الجنسي . وبالطبع ، فإن هذا المريض يعبّر عن رعبه الشديد وهموده depression أمام هذا التفكير القهري compulsive ، الذي يجعله يرتعد ، لكن لا شك في أنه يثيره . ويمكن لنا أن ندعو هذا الاستيهام بأنه منحرف ، وإذا ما تبع المريض نزوته ، فسوف ندعوه منحرفاً بالتأكيد .

لنعدّل المشهد قليلاً ونفترض أن الرجل يشعر بنزوة لأن يقبّل بحنان يد أمه الميتة . إننا نعتبر هذا السلوك سوياً . مع أنه ليس بمقدورنا أنْ ننكر أنّ القبلة ليست إلا سليلاً للعضّة ، مجرد شكل مخفّف ومعدّل منها . فلقد تلطّفت العدوانية الأصلية إلى حدّ

(1) ـ إن العمل الذي قدّم فيه فرويد وجهات نظره في الانحرافات الجنسية بأفضل صياغاتها هو « ثلاث مقالات في نظرية الجنسية » ، هذا الكتاب المؤثّر ، والذي سيحتفظ بقيمته حين يتمّ تصويب الكثير من أخطائه . فهو قائم على تبصّرات في طبيعة الدافع الجنسي مستحصلة من التحليل النفساني للعصابيين .

بعيد بحيث باتت القبلة تعبيراً عن شعور معاكس من الحنان . ونحن لا نعتبر القبلة فعلاً منحرفاً .

إن إعادة الاستقصاء الدقيقة والنزيهة لهذه المشكلة تقودنا إلى سؤال مدهش : هل الانحرافات الجنسية هي جنسية وحسب في أصلها وطبيعتها ؟ والجواب مدهش أيضاً : إنها ليست كذلك أبداً . ومع أننا نعترف بأن نظرية فرويد مؤسّسة على ملاحظات ممتازة ، إلا أنّ هذه الملاحظات تمّ استخدامها بمثابة منصّة للغطس في الظلام . وأنا أعتقد أن المهيمن في كل الانحرافات ليس الجنس ، وإنما دوافع الأنا . صحيح أنّ النزوة الأصلية هي من طبيعة جنسية ، ولكنها صادفت عقبات خارجية أو نفسية بينما هي في طريقها إلى الإرضاء وكان عليها أن تُخلي مكانها للدوافع الأخرى ، لفترة تطول أو تقصر . وهذه الدوافع الأخيرة وحدها يمكنها أن تساعد في بلوغ الغاية الأصلية . وأنا أعود هنا إلى توصيف الدافع الجنسي بأنه حاجة عضوية لإزالة ، أو على الأقل لتخفيف ، توتر فيزيائي محض ، وتحقيق إطلاق جسدي . وهذا الدافع الخام والأوليّ لا يمكنه أبداً أن يكون مصدراً للطاقة النفسية التي تؤدي إلى نشاطات المنحرفين واستيهاماتهم . أما أقصى ما يمكن أن يحققه العائق الخارجي فهو الإيقاف ، أو التأخير ، في حين تؤمّن دوافع الأنا الطاقة الضرورية للتغلّب على الإحباط frustration .

يمكن لنا أن نفترض على نحو مبرّر أن السادية تدمغ الانحراف الجنسي بدمغتها . فهي تنزع إلى إذلال الموضوع أو تبخيسه ، إلى كسر مقاومته بالعنف ، وإلى إنزال الأذى والعار به . دعونا نقبل أنّ الطفل يقارب الموضوع بنزوات جنسية مبهمة ، ويلاقي مقاومة غير متوقعة من هذا الموضوع ، كما يجد عقبات في طريقه . فالموضوع ، أو إذا شئتم ، الضحية ، لا تريد أن يتمّ استعمالها على هذا النحو ، فهي أو هو يرفضان أن يكونا أداة أو ألعوبة طيّعة . وعندئذ يضاعف الطفل جهوده ، ويستخدم طاقته ، بغية التغلّب على مقاومة الشخص الممانع ، وفرض إرادته ، وتحقيق غايته . ويستخدم قوته العضلية للتغلّب على نفور الشخص ولتنفيذ رغبته .

ومن الممكن تماماً أن يحصل هذا الربط بين الرغبات الجنسية والعنف عندما تكون مقاومة الموضوع متوقّعة مسبقاً وتكون الغلبة متصوَّرة . ويكون مصدر الإشباع عندئذ

خليطاً من إرضاء الدوافع الجنسية والأنويّة . وبعبارة أخرى : إنَّ الدافع الجنسي يتمّ كبحه وهو في طريقه إلى غايته ، فيضطر أن يستدعي لمؤازرته الغريزة الأقدم . وفي هذه الحالة تحتلّ النزوات العدوانية الأقدم والأقوى مكان الصدارة . فإذا ما تمّ بلوغ الهدف بمساعدتها ، نالت حصة مُعتبرة من الإرضاء الناتج . ويشبه الوضع حالة صبيّ صغير في الملعب يبتغي إنفاذ مشيئته في ولد آخر يقاومه ، وعندما يتحقق الأول من أنه لا يستطيع ذلك وحده ، يستدعي أخاه الأكبر والأقوى لهزيمة الخصم . فهل يمكنك آنذاك أن تؤكد أن قوة الولد الخاصة وحدها هي التي تغلّبت على المقاومة ، وأن النتيجة تمّ بلوغها بجهوده الخاصة ؟

إن الإرضاء المستمّد من النشاط السادي هو إشباع للعدوانية إلى حدّ بعيد . وقد يجادل المحللون النفسانيون أنّ من الأدقّ القول أن هذه العدوانية تعود إلى طبيعة الجنسية بحدّ ذاتها ، حيث لا يمكن بدونها كسر المقاومة التي يبديها موضوع النزوات الجنسية . ولكن مثل هذا الجدال ليس فيه من المعنى إلا كما في القول أنّ العدوانية متأصلة في الجوع[2] . بيد أن الجوع ليس عدوانياً بحد ذاته . ويمكن أن يصبح عدوانياً إذا ما أُنكِرَ عليه إرضاؤه ، من الخارج ، ولكن لا شيء في طبيعته يدلّ على مثل هذه الخاصية الجوهرية . وهذا الجدال كله قائم على فكرة مسبقة عن طبيعة الجنس ليس لها ما يبررها إلا بقدر ما لادّعاء الصبي الصغير في مثالنا أنه وحده قد تغلب على الخصم دون عون

---

(2) ـ لقد بيّن فرويد فعلاً أنّ جنسية الرجال « تشوبها شائبة من العدوان ، أي الرغبة في إخضاع الغير ، وهي رغبة تنحصر دلالتها البيولوجية ـ على ما يلوح ـ في ضرورة التغلّب على الموضوع الجنسي بإتيان أفعال مغايرة للمغازلة ، ومن ثم تناظرُ السادية العنصر العدواني من الغريزة الجنسية بعد استقلاله وتضخمه عن طريق تحوله إلى مركز الرئاسة اغتصاباً » (ثلاث مقالات في نظرية الجنسية) . [ص 48 من الترجمة العربية ـ م ـ] . أليس من المبرّر أكثر أن نفترض أن العدوانية الأصلية لدى الرجال تكتسب عنصراً جنسياً يصبح لا حقاً مستقلاً ، ومتضخماً ومصمماً على التحول إلى مركز الرئاسة ، مع أنه لا يستطيع التنصّل من ارتباطه مع أصله .

من أحد .

إذا أخذنا في الحسبان حقيقة أن الدوافع الأنويّة هي الأقدم والأكثر إلحاحاً وأن النزوات الجنسية هي الشريك الأصغر الذي يحاول أن يستقّل بنفسه ، فإن الاشكالية كلها تنتقل إلى حقل جديد . وعندئذ تنقلب أسبقية الدوافع رأساً على عقب : إن ثمة نزوة عدوانية أصلية تجاه الموضوع ، نزوعاً إلى تملّكه . وهذا الدافع القديم يكتسي حلّة جديدة عندما تستيقظ النزوات الجنسية وترتبط به . وبالطبع ،فإن العدوانية تكون مقيّدة في الجنسية السويّة ، ولكنها قد تبرز إلى المقدمة عندما تُقاوَم المقاربة الجنسية . ويمكن لشهوة السيطرة والانتزاع العنيف أن تستيقظ من جديد في الجهد المبذول للتغلّب على هذه المقاومة . وفي هذه الظروف تأخذ السادية شكل الارضاء بواسطة عنف الدافع الأنويّ الأصلي الذي أضحى متركّزاً على موضوع جنسي . أما العنصر الجنسي فيستمد ، لدى بلوغه غايته ، منفعةً معتبرة ، ويكسب من النصر شأن الصبي الصغير الذي كسب من نصر أخيه الأكبر .

ولكن إذا كانت وجهة النظر هذه صائبة ، فإن نظرية اللبيدو الفرويدية تنهار برمّتها : فالطفل لا يبدو منحرفاً متعدد الصور ، والجنسية لا تحوي مكوّنات سادية ، أو مازوخية ، أو تلصصية ، أو استعراضية . والانحرافات هي تظاهرات مفرطة للدوافع الأنويّة القديمة ، وقد توجّهت الآن نحو موضوع جنسي . لنعد الآن إلى مثالنا السابق : لقد تمّ استدعاء الأخ الأكبر الموجود في الملعب من قبل أخيه الأصغر العاجز عن إنفاذ مشيئته في الولد الثالث . وما أن يتحقق الأخ الأكبر من أن مساعدته مطلوبة حتى يطرح الخصم أرضاً ، مستمتعاً بهذا الفعل العنيف استمتاعاً كاملاً ، ومن ثم يمضي مبتعداً ، متيحاً للأخ الأصغر أن يستمتع بحصته من الظَفَر .

تلك هي صورة السادية كما تبدو لي : إن طبيعة لذّتها هي في الحقيقة شهوة الانتزاع العنيف ، والتسلّط ، والقوة البهيمية ، ويكون هذا الشكل من الإرضاء مختلطاً مع التمتّع الجنسي أو ملحوقاً به . وهذه النظرية التحليلية النفسية ـ الجديدة هي عكس وجهة نظر فرويد تماماً في طابع الانحرافات وفي طبيعة الجنسية الطفلية . ولكم إن تقارنوا ، مثلاً ، اللوحتين المتعاكستين التاليتين : يقول فرويد إن النشاط العضلي الوفير هو حاجة

جنسية بالنسبة للطفل ، وإنه يستمد منها لذّة لا تعادلها لذّة . ومن ثم يشير إلى أن عدداً من الأشخاص يقررون أنهم خبروا أولى علامات التهيج في أعضائهم التناسلية إبّان تحاشنهم أو تصارعهم مع رفاقهم في اللعب ، وهو موقف يتوفر فيه التصاق كبير ببشرة الغريم فضلاً عن الجهد العضلي العام . والميل إلى الالتحام العضلي بشخص معين يشكّل نموذجاً للالتحام اللفظي (وثمة مثل ألماني قديم يقتبسه فرويد يقول : « المرء يشاكس من يحب(*) ») . ويفسّر فرويد هذا الميل باعتباره واحداً من العلامات الأكيدة على أن هذا الشخص وقع عليه الاختيار كموضوع . كما يتبيّن فرويد في هذا التهييج الجنسي عن طريق النشاط العضلي واحداً من جذور الموقف السادي . ويرى أن الرابطة الطفلية التي تربط بين المخاشنة والتهيج الجنسي هي واحدة من العوامل التي تحدّد فيما بعد الاتجاه المفضّل لدافع الأطفال الجنسي(**). ويقول فرويد ، إنَّ التربية الحديثة تستخدم الرياضة على نطاق واسع لصرف الشبيبة عن النشاط الجنسي أو ـ يصوّب فرويد نفسه ـ أنها تستبدل لديهم لذّة حركية بمتعة جنسية ـ وتجبر النشاط الجنسي على العودة إلى مقوّماته العشقية الذاتية autoerotic components(***)

أما أنا فأفضّل أن أفترض أن المتعة المستمدة من النشاط العضلي ليس لها في الأصل أدنى معنى جنسي بالنسبة للطفل وهي تعبير عن إحساسه بالقوة والكفاءة . ومع أن كثيراً من الأطفال يشعرون بتهيج جنسي أثناء المخاشنة ؛ إلا أن التنبيه الجنسي ليس هو الباعث motive على المخاشنة بالتأكيد . فهو قد اختلط مع المخاشنة وحسب ، كما أنه منشأ لاحق . فالتهيج الجنسي هو عنصر تالٍ ينضاف إلى إشباع الدوافع العدوانية الناشطة في النزاع . وبالطبع فإن النزاعات اللفظية تنطبق عليها مناقشة مماثلة ، حيث تتحدد متعة النشاط الذهني بالعوامل ذاتها . وقد تُستخدم الرياضة لصرف الشبيبة عن

*) ـ انظر ص 82 من الترجمة العربية لكتاب فرويد « ثلاث مقالات في نظرية الجنسية » .

**) ـ ص 82 ـ 83 من الترجمة العربية لكتاب فرويد « ثلاث مقالات في نظرية الجنسية » .

***) ـ ص 142 ، الهامش 45 ، من الكتاب ذاته .

الاهتمامات الجنسية ، ولكن ذلك لا يكافىء عودة النشاط الجنسي إلى واحد من مقوّماته العشقية الذاتية ، وإنما يكافىء سحبه إلى حقل التنافس والتبارى ، وبالتالي إلى التعبير عن دوافع الأنا .

ولقد قال فرويد أنّ فكرة السادية تتراوح بين موقف إيجابي أو عنيف تجاه الموضوع الجنسي وبين تعلّق الإشباع كليّة على إذلال الموضوع والنيل منه . ويقول إنّ هذه الحالة الأخيرة القصوى هي وحدها القمينة ـ إنْ توخينا الدقة ـ باسم الانحراف(*) . أليس هذا سوء تفسير غريب ؟ أليس من الأفضل أن نعتبر مثل هذه الحالة القصوى تعبيراً عن العدوانية والتملّك الوحشيين ، وأن الإرضاء الجنسي مرتبط بها كما الفضلة التي تنتجها كل صناعة ضخمة.

إن أصل السادية هو في الدوافع العدوانية الأولية ، وارتباطها بالنزوات الجنسية أمر ثانوي ومسحة قد تكون غائبة تماماً . وهذه واحدة من الحالات التي تكون فيها حوافز الأنا مندمجة مع الحاجات الجنسية . وهي غالباً ما تحدث عندما تلاقي نزوة جنسية ملحاحة مقاومة شديدة من الموضوع أو عندما تعوقها عقبات أخرى عن بلوغ هدفها . فهنا يحصل تطور دينامي هام : ففي البداية عندما يُكَفُّ الدافع الجنسي عن بلوغ هدفه ، يفزع الشخص إلى العنف والقسوة كي ينال الإشباع . ولاحقاً ، يصبح الإرضاء الجنسي مختلطاً إلى حدّ بعيد مع الإرضاء الآخر بحيث أن الاستيهامات أو الأفعال العنفية توقظ الرغبة الجنسية . وفيما بعد ، فإن ضروب الكفّ الأخلاقية ضمن الشخص ـ الخوف والقلق ، مثلاً ـ تعمل هي أيضاً عمل العوائق . ومن أجل التغلّب عليها غالباً ما يزداد أوار العنف والعدوان ، ويتمّ التعامل مع الموضوع وكأنما هو تشخيص Personifcation للكف . وعندئذ تصبح حالة المنع أو التحريم forbidden كما في الانحرافات جميعها ، تنبيهاً زائداً . كما أن التغلّب على أنواع الحظر والكفّ الداخلية والخارجية يزيد الإرضاء . وعندئذ يثبت اللجوء إلى العنف في خرق التابو أن النزوة السادية متأصلة في دوافع التمرد لدى الأنا .

---

*)ـ ص 49 من الكتاب ذاته .

أما الميل إلى التلصص Peepوالنظر بقصد التهييج الجنسي ، فهو من الطبيعة ذاتها ؛إنه ، لِنقُل ، شكل مخفّف من السلوك السادي مقتصر على العيون . فالتجسس على الموضوع يعني ، في الأصل ، تملّكه بالنظر ، ولا حاجة لأن يكون له معنى جنسي . والشهوة النوعية في التلصص على النساء العاريات هي أيضاً محاولة لتملكهن من خلال النظر بسبب وجود عوائق خارجية أو من طبيعة فيزيائية تحول دون المقاربة الجنسية المباشرة . ويمكن لهذا النشاط التمهيدي أن يستقلّ عن الهدف النهائي للدافع الجنسي وينال متعته كما لو أنه هدف بحد ذاته . إنه لمن الصعب نكران الطبيعة العدوانية لهذا التلصص . فهو ، شأن السادية ، مزيج من النزوعات العدوانية والنزوعات الجنسية . ومن الواضح هنا أيضاً أن التغلّب على الكفّ يعزّز الاشباع ويعمّقه .

ولا حاجة بي هنا لمعاجة الطابع السيكولوجي للمازوخية بصورة مركّزة ، فقد عالجت هذا الموضوع في كتاب نُشِر منذ أربع سنوات[3] . وحاولت أن أوضح في ذلك العمل أن المازوخية هي التفاف Detourبقصد بلوغ الأهداف ذاتها ، من عدوانية ، وقوة وثأر ، كما هو الحال مع النزوات السادية ؛ وأن المازوخية ليست نقيض السادية بقدر ما هي شكلها المقلوب . إنها السادية مقلوبة رأساً على عقب . فالمازوخية تحقق غايتها من خلال إظهارٍ غريبٍ للعكس . ويمكن التعبير عن صيغة المازوخية على أفضل وجه بعبارة « النصر عبر الهزيمة » . فهي تحقق قصدها الخفيّ بوسائل من السلبية الصريحة والإذعان المزعوم .

وبقصد إيضاح طبيعة هذا الانحراف ، سوف أورد مثالاً واحداً لاستيهام مازوخي : بينما كان مريض مازوخي ماراً في ردهة فندق ، رأى WAC (عضوة في الفيلق العسكري النسائي) جالسةً وقد وضعت رجلاً فوق الأخرى . وتخيّل المريض أنه لو كان تحت إمرتها ، فإنها ستكون رئيساً بالغ القسوة ، توبّخه وتعاقبه جسدياً ، ولعلها ترفسه بكل عنف بحيث تجرحه . ومع أن الالحاح هنا يبدو مركّزاً على الشعور بالإذعان والعقاب ، إلا أن هذا الاستيهام يهيجه جنسياً أيضاً .

(3) ـ المازوخية لدى الإنسان الحديث ، نيويورك ، 1941 .

وتذكّر المريض ، لاحقاً ، أنه في نهاية هذا الاستيهام ظهرت صورة أخرى ، كنوع من الملحق تماماً . وكان قد نسيها لأنها ليست هامة وليس لها أية دلالة ، وبالكاد جديرة بأن تذكر . وقد كان لهذه التتمة المُهمَلة المحتوى التالي : رأى لبرهة وجه الفتاة نفسها على الوسادة ، وقد ارتسم عليه ذاك التعبير الذي يبدو على وجه النساء في « ذروة » الرعشة . كانت عيناها تومضان بخنوع واستسلام لا حدّ له . وبالطبع ، فإنّ معنى هذا الاستيهام واضح :«حتى . . .لو كُنتِ قاسية معي وعاقبتِني ، سوف تمنحين نفسك لي في النهاية ، وعندئذ ستأتي تلك اللحظة حيث تكونين ناعمة ومذعنة » . وهكذا فإن المتعة المازوخية تنجم عن انزياح Displacementالمتعة النهائية إلى طور سابق . وإن مثل هذا المُقام Sojourn في الأفعال والاستيهامات التمهيدية هو سمة مميزة لكل الانحرافات .

أما الاستعراضية Exhibitionism فهي تعبير ملطّف أو مخفّف عن الدوافع الانفعالية الأساسية ذاتها التي تسبب الموقف المازوخي . فالاستعراضية دعوة لشخص آخر إلى تملّك جسد الاستعراضيّ بالنظر ، وهي بالتالي التفاف سلبي من أجل بلوغ الأهداف اللاواعية ذاتها التي تحاول المازوخية بلوغها بطريقتها الخاصة .

إن عامل الأنا مهيمن في كل هذه الانحرافات « الجنسية » . ونحن لا ندعوها جنسية إلا لأن دوافع الأنا تعمل في ميدان الجنس .ولقد ثبت أن الدوافع الجنسية وحدها ليست قادرة على بلوغ هدفها ولذا يتمّ استدعاء العدوانية والتملّك كي يشقّا لها الطريق . وغالباً ما ينجم عن التغلّب على الكفّ متعة هي عبارة عن مكسب ثانوي في هذا الإرضاء المختلط للنزوات الجنسية ونزوات الأنا ؛ وفي الحقيقة فإن الرغبة في اصطناع التحريم تصبح ذات دلالة في كل الانحرافات . فالفاكهة المسروقة هي الفاكهة الألذّ . وكلما زادت معارفنا عن طبيعة الدافع الجنسي ، كلما قويَ انطباعنا بأنه نادراً ما يظهر كرغبة جنسية خام وأنه في تظاهره العام يكون مختلطاً مسبقاً مع دوافع مختلفة من ميدان الأنا . وتمثّل الانحرافات « الجنسية » صورة هذا الخليط تماماً ، حيث تكون نسبة شهوة الهيمنة والانتزاع من الارضاء أكبر من الحصة الجنسية المحضة .

إن عبقرية فرويد السيكولوجية ستتجلّى يوماً بعد يوم ويتزايد الاعجاب بها . أما

منظومة اللبيدو ، فأخشى أنها ستلقى ذاك المصير السيء الذي تحسّر عليه مرة هربرت سبنسر في حديثة عن « نظرية جميلة قتلتها عصابة الوقائع المتوحشة » . أما التحليل النفسي ـ الجديد فقد توصّل إلى أن البحث السيكولوجي في الانحرافات هو بحث في العنف والتبخيس ، وفي الخوف والجرأة أكثر منه بحثاً في الجنس . وأعلم ، بالطبع ، أن وجهة النظر المعبّر عنها هنا هي مجرد فرضية مؤقتة تفسّر بصورة فجّة وقائع معروفة لدينا ، لكنني آمل أنها تفسّرها بصورة أفضل من النظرية التحليلية العتيقة ، ذات النواقص والثغرات الواضحة .

ولدينا سؤال أخير : ما هي العلاقة بين الانحرافات والحب ؟ وأنا ممن يعتقدون أن الانحراف هو زَيْغ Aberration لنزوات العدوان والهيمنة الموجّهة نحو موضوع جنسي . وطابع الانحراف هو خليط من نسبة ضخمة من دوافع الأنا مع كمية زهيدة من الحافز الجنسي . فهل من مكان للحب ، والحنان ، والعاطفة في هذا الخليط ؟ يااللفظاظة ، على المرء ألاّ يفكّر هكذا . ومع ذلك ، فإن الخبرة التحليلية تثبت أن مثل هذا المزيج الغريب ممكن . وكثيراً ما يمكن أن يتّحد الهيام Adorationمع الدوافع الجنسية والأنويّة . وهو يعمل آنذاك على تلطيف المذاق اللاذع للهيمنة الوحشية ويسبغ على الاشباع الجنسي نكهة غريبة ، نوعاً من المذاق العذب ، الذي يدوم . وأنا أعرف أناساً ممن يقدّرون هذا المزيج حقّ قدره ، ولكن حتى هؤلاء يعترفون أنه نادر وأنه مُشَهٍّ أكثر مما هو مُغَذٍّ .

الجنسية المثلية

تراكمت الأدبيات التي تعالج مشكلات الجنس إلى حدٍّ بات فيه الباحث الذي يعتقد بقدرته على الإسهام في هذا الموضوع عاجزاً عن التحقّق من أنَّ وجهة النظر ذاتها لم تُنشر عدداً من المرات في السابق . وما من فرد واحد يمكنه معرفة كل المادة المطبوعة . لكن الهدف ليس الأسبقية وإنما الأصالة . وتبرز الصعوبة الكبرى عندما يحاول المرء أن ينسى في البداية كل ما قرأه أو سمعه من قبل ، وينظر في الظواهرْ كما لو أنه يواجهها للمرة الأولى ، دون أفكار مسبقة .

وتُلمَس هذه الصعوبة مباشرة عندما يدرس المرء مشكلة الجنسية المثلية Homosexuality ، إنها تبدأ مع الاسم ذاته . فالجنسية المثلية في التصوّر التحليلي ـ النفسي تشتمل على علاقات جنسية مع شخص من الجنسْ ذاته وكذلك على بذل العاطفة والحب تجاهه . ولا يرسم المحللون النفسانيون أي خط فاصل بين التهيّج الجنسي الذي يشعر به رجل يمضي إلى الفراش مع بحار صادفه منذ نصف ساعة وبين شعور هذا الرجل بالحنان تجاه والده أو معلّمه المفضّل . فكلاهما انفعالان جنسيان مثليان ، والثاني وحده مكفوف الهدف أو حائد Deflectedعنه . كما أنّ الإعجاب بالرجال العظماء ، والصداقة ، والصُحبة هي ، في معناها الأدق ، تعبيرات جنسية مثلية مُصَعَّدة ، أما النظرة التحليلية النفسية ـ الجديدة فتميّز بحدّة بين هذه الإمكانيات : إنها تفرّق بين الجنسية المثلية والحب أو العاطفة تجاه نفس الجنس باعتبارها ظواهر مستقلة ، وتدرك في النهاية إمكانية اتحاد كلا الانفعالين . وبعبارة أخرى ، إنها تؤكد على وجود الإمكانيات الانفعالية ذاتها في العلاقات مع الجنس المماثل كما مع الجنس الآخر ، كما تؤكّد أيضاً على وجود إمكانيات الانتقال أو التزامن بل وأودّ أن أمضي بعيداً لأزعم أنّ من الممكن أن تنشأ بين فردين من جنس واحد ظاهرة مشابهة لظاهرة الغرام ، وخاصة

بين المراهقين . فلماذا ، إذاً ، نطلق اسم العلاقات الجنسية المثلية على كل هذه العلاقات المتباينة ، والتي تتميّز إلى حدٍّ بعيد عن بعضها البعض في المنشأ والطابع ؟

ليس ثمة من ينكر أن العلاقات الجنسية المحضة ممكنة مع فرد من الجنس ذاته . ويعرف أيّ سيكولوجي كثيراً من الحالات التي يمضي فيها رجل إلى الفراش مع رجل آخر دون أي اهتمام سوى الاهتمام الجنسي الذي يتلاشى مباشرة مع إزالة التوتر الفيزيائي ، مخلِّفاً مكانه النفور ، والاشمئزاز واللامبالاة في معظم الحالات . وأكثر من ذلك ، ليس ثمة من ينكر أن مشاعر الرفقة والصداقة توجد بين الرجال ، دون أثر للرغبة الجنسية . وحتى لو سلّمنا بوجود نزوات مكبوتة ، لا واعية من هذا النوع ، أليس من الممكن أن تكون جديرة بالاهمال ودون أهمية عملياً ؟

إن التفريق الذي يجريه التحليل النفسي ـ الجديد في العلاقات بين أفراد الجنس الواحد لا يقتصر على ما يفعلونه أو يقولونه . إنه يمضي أبعد من الأقوال والأفعال ليبلغ ميداناً رحباً من الاستيهامات والأفكار . إذْ يمكن لرجل أن يفكّر بآخر بمشاعر صداقية دافئة وبقدرٍ عظيم من الاشباع الانفعالي ، بينما يمكن لرجل ثانٍ أن يتخيّل علاقات جنسية مع رجل آخر ولايشعر إلا بالتنبيه الحسيّ وحده . ولا بد من الاعتراف بأن هنالك فارقاً ملحوظاً في مواقف كلا الجنسين : فنادراً ما تشعر امرأة بالتهيج الجنسي وحده تجاه امرأة أخرى ، دون أثرٍ للحنان ، ولكن ذلك يحصل .

انطلقت المقاربة التحليلية النفسية لمشكلة الجنسية المثلية من وجهة النظر البيولوجية ، من حقيقة ثنائية الجنس Bisexuality ، الاستعداد العضوي الموجود لدى كل فرد والذي يوحِّد صفات كلا الجنسين . بيدأن ثنائية الجنس لا تفسّر الجنسية المثلية ، وإنما هي تجعل هذا التفسير ممكناً وحسب . اسمحوا لي أن أجري مقارنة : إنّ الطيران ممكن فقط بوجود المطارات وغيرها من المعدّات المتوفرة على الأرض . لكن ما يجعل الطائرات تُقلع عن الأرض ليس وجود المطارات . وتمضي مقارنتي أبعد من ذلك : إن إمكانية الطيران لا تبدأ مع تصنيع الطائرات ، وإنما قبل ذلك ، مع تصوّر واختراع سفينة الهواء(*) . فالنشاط الإبداعي للمخترع هو النقطة الرئيسية في تاريخ

(*) ـ aircraft سفينة الهواء ، سواء كانت منطاداً أو طائرة .

الطيران . وبهذا المعنى ذاته أتجاسر على القول إن الشيء الهام في فهم العلاقات الجنسية والعاطفية بين أفراد الجنس الواحد ليس النشاطات ، وإنما الاستيهامات التي تجعل هذه النشاطات ممكنة .

لا مناص من ذكر الحقائق البيولوجية ، لكنها عقيمة ، من و جهة النظر السيكولوجية . وعند بحث مشكلة الحب بين أفراد الجنس الواحد ، من الأفضل أن نبتعد عن أعراض وسلوك « الجنسيين المثليين » ، والتي هي واضحة تماماً ، وأن نهتمّ في المقام الأول بالاستيهامات ، والتي كثيراً ما تحتجب ، حتى عن أصحابها أنفسهم في بعض الأحيان .

وبالطبع ، فإنّ هذا النوع من المقاربة السيكولوجية يكون نافلاً تماماً عند تحليل الجنسية الخام ، لكنه النوع الوحيد الممكن بالنسبة للعدد الهائل من الحالات التي يتضافر فيها الحافز الجنسي مع الاهتمام أو العاطفة . وهذه الحالات الأخيرة هي الوحيدة التي تهمّنا هنا . فنحن نعنى ، لا بالبحارة الذين يبقون في عرض البحر شهوراً طويلة دون أن يدخلوا إلى ميناء ، ولا بالسجناء وغيرهم ممن لا تتاح لهم فرصة ممارسة الجنس السويّ ، وإنما بالأشخاص الذين تتوفر لهم هذه الإمكانية ومع ذلك يفضّلون أفراداً من جنسهم كموضوعات للحب والجنس .

عادة ما يبدأ السيكولوجيون المهتمّون بهذه المشكلة بأفكار عن الرغبة الغريبة لرجل يمكنه أن يمضي إلى الفراش مع رجل آخر أو لامرأة يمكنها ذلك مع امرأة أخرى . ولكن اسمحوا لي أن أقول : إنّ الغرابة ليست موجودة إلا بالنسبة للواقع المادي ، المجسّد . أما في حقل الاستيهام فالرجل لا يمضي إلى الفراش أبداً مع رجل آخر ولا المرأة مع امرأة أخرى . ذلك أن أحد الرجلين يلعب دور المرأة والعكس بالعكس . وبالطبع فإن تبادل الأدوار ممكن ومعتاد ، ولكن يبقى هنالك على الدوام -بصورة واعية أو لا واعية - شخصان من جنسين مختلفين حاضرين في الاستيهام . وإذا ما أخذ المرء هذا الوضع في حسبانه ، فإنه سيدرك أن الاختلاف البيولوجي بين الجنسين لا يفسّر المشكلة السيكولوجية ، وإنما قدرة الخيال على لعب دور الجنس الآخر وعلى رؤية الشخص الآخر في هذا الدور ، ولقد ظلّت هذه المشكلة مهملة من قبل المحللين

النفسانيين إلى الآن ، وهذا هو انطباعي على الأقل . ومع أنَّ للمقارنة مع الطائرة ميزتها ، إلا أنني سأقوم بتعديلها بعض الشيء : سوف استبدل بالطائرة المنطاد ذي المحرك ، والذي يمكن من الأرض توجيه حركاته في الهواء الطلق . وبالتالي فإنه لا يكون مستقلاً تماماً ولا طيرانه حرّ حرية مطلقة . وبعبارة أخرى ، فإنّ واحداً من الشخصين في الاتحاد الجنسي المثلي يتخيَّل الآخر امرأة ، ولكن الهوية الجنسية الحقيقية تبقى سليمة ، في الوقت ذاته ، في ذهن هذا العاشق . أما الشريك فيؤدّي وظيفته متخيّلاً أنه امرأة ، على الرغم من إدراكه ، الذي يحتجب مؤقتاً ، أنه رجل .

إن صعوبة قبول هذا التفسير تبرّر تقديم مقارنة أخرى ، آمل أن توضح الطابع النوعي لهذا التخيّل : عند أداء مسرحية تاجر البندقية يرى المشاهد بورشيا ـ التي أعلنت مسبقاً عزمها على لعب دور الرجل ـ متنكرةً بهيئة رجل ، ويستمد المشاهد لذّة من أدائها هذا . فالمشاهد يعرف أن بورشيا فتاة ، ويستمتع بهذه المعرفة . وتسير بورشيا وتتحدث مثل رجل (فقد تدرّبت على ذلك في الغالب) ؛ ويبقى المشاهد مدركاً في الوقت ذاته حقيقة أنها تمثّل وحسب . وعلى هذا النحو فإنّ الاستسلام للإيهام يضمن لذّة عظيمة ، رغم معرفة أنه إيهام . وبالمعنى ذاته ، فإنّ الجنسي المثلي يتخيّل أن شريكه فتاة ، مع أنه يعلم ، بالطبع ، أن هذا الشريك رجل . كما يمكنه ، هو نفسه ، أن يلعب دور الفتاة في خياله ، مع أنه يعلم ، بالرغم من قوة الاستيهام لديه ، أنه رجل وسيبقى كذلك . ويبلغ الأمر ، بالنسبة للشخص ذي الخيال الواسع ، حدَّ التمثيل المسرحي أمام نفسه لمقطع أو لدور صغير وبفنيّة عالية . ولا بد أن تكون مشاعر هذا الرجل مشابهة إلى حدّ بعيد لمشاعر تلك الممثلة التي تلعب ، باعتبارها بورشيا ، دور الذكر . والتمثيل قد يكون تمثيل فنان ، لكنه لا يمكن أن يكون أبداً دون إدراك أنه تمثيل .

لقد فات السيكولوجيين أن يلاحظوا هذا الدور المماثل في الجنسية المثلية . بيد أنه لم يَفُتْ ملاحظة الجنسيين المثليين لأنفسهم . وبالطبع ، فإنّ لهذه الحالة النفسية دلالتها ، ليس خلال الفعل الجنسي وحسب ، وإنما بالنسبة للموقف العام للجنسي المثلي أيضاً . فهذا الاستيهام يفعل فعله حتى عندما يكون الرجل وحده ويتهيج جنسياً : فيتخيل نفسه في دور المرأة أو يتخيّل رجلاً آخر في هذا الدور .

ويسوقنا وجود هذا الاستيهام إلى سؤال شائق : هل توجد جنسية مثلية خالصة ؟ أو لِنَقُل ، هل هنالك موقف نفسي يغيب فيه تماماً هذا النوع من التخييل ، ويرغب فيه رجل برجل آخر ـ أو امرأة بامرأة أخرى ـ دون هذه الاستحالة التخييلية Metamorphosis ؟ لا شك أن هنالك مثل هؤلاء الرجال والنساء ـ لا المخنّثين ، الذين لا تهمّنا سيكولوجياهم هنا ، وإنما رجال ونساء لا يلعب التماثل والاختلاف في الجنس بالنسبة لهم أي دور ، وينشدون إشباع الدافع الجنسي الخام وحده . إنهم يستخدمون الشريك ببساطة كأداة ، باعتباره الموضوع الأكثر توافراً . ومن المحتمل كثيراً أنّ الأطفال قبل البلوغ أو أثنائه غالباً ما يتّخذون مثل هذا الموقف . وعلى أية حال ، فإن استيهام الاستحالة الجنسية يكون شَغّالاً في معظم الاتحادات الجنسية المثلية . ومن نافل القول أنّ الحالة ذاتها ، مع التغييرات الضرورية في التخييل ، تنطبق على العلاقات بين النساء .

ونأتي الآن إلى سؤال آخر لم نَعْتَد من السيكولوجيا المعاصرة أن تطرحه ، شأنه شأن السؤال الأول.. ما هو الموقف من الجنس الآخر بالنسبة للأشخاص الذين يفضّلون أفراداً من جنسهم كموضوعات للحب ؟ والجواب واضح : إنهم يشيحون بوجوههم عن الجنس الآخر ، ولا يبدون اهتماماً به . ولكن كلما نقّب المرء أكثر باحثاً في السيرورات السيكولوجية ، كلما قويَ لديه الانطباع بأن المكان البادي للعيان هو المكان الأفضل لإخفاء ما يجب إخفاؤه . فالواضح يمكن أن يكون واضحاً على نحو مفرط في بروزه .

وأكرر ، ما هو موقف هذه المجموعة الكبيرة من الرجال تجاه الجنس الآخر ؟ وبالطبع ، فإنّ علينا أن نفرّق بين سلوكهم الاجتماعي تجاه النساء وبين مشاعرهم نحوهن ، فسلوكهم غالباً ما يكون طاهر الذيل ولا غبار عليه ، يتراوح بين اللامبالاة اللطيفة والمغازلة الخفيفة . وفي حالةٍ راقبتها ، وصل الأمر إلى حدّ وجود Fausse maitresse(*) كان الرجل يتكلّف في مغازلتها ويعتبرها محبوبته أمام المجتمع وذلك

(*) ـ عشيقة زائفة .

للتغطية على جنسيته المثلية . ومن الممكن استنتاج الموقف الحقيقي للجنسي المثلي بسهولة من طبيعة الاستيهامات المذكورة آنفاً . فمن الواضح أن بعض الجنسيين المثليين يضطلعون بدور المرأة فيسلكون كالنساء في علاقتهم مع غيرهم من الرجال ، يُحاكون الطرائق النسوية والتأنّق النسوي ، ويصدرون عموماً عن موقف المرأة في بعض حركاتهم وتفاصيل لباسهم ، وعاداتهم[1] . ويتفق جميع الباحثين على هذه السمات المميزة ، ولكن تبقى هنالك لمسة تفلت من ملاحظتهم ،على الرغم من وضوحها .

تبدو محاكاة Imitation الجنسي المثلي .لأساليب النساء وطرائقهن بمثابة دليل على إعجابه بهن . وهل نسينا القول المأثور : المحاكاة هي الشكل الأصدق للإطراء ؟ لكن حقيقة اختيار هؤلاء الذكور النسويين رجالاً ،لا نساءً ، كموضوعات لهم تبدو متّسمةً بالتناقض ، كما تكشف الملاحظة الدقيقة عن ملامح متناقضة أخرى ، لا تدمر الثقة بصدق وأصالة مثل هذا الحب الشديد المزعوم وحسب ، بل وتنفيه أيضاً . إن كلّ من أتيحت له فرصة مراقبة سلوك الرجال الجنسيين المثليين بين بعضهم البعض يتكوّن لديه انطباع مفاده أنهم لا يحاكون الجنس اللطيف مجرد محاكاة ، وإنما يسخرون منه . وعندما تصغي إلى أحاديثهم ، حين يكلّم أحدهم الآخر ، تسمع بوضوح أصوات السخرية اللاواعية والاستهزاء النافر في محاكاتهم النسوية . وإليكم بعض العبارات التي التُقِطَتْ من أحاديث بين رجال جنسيين مثليين : « عزيزتي ،أنتِ فاتنة جداً ! » « عزيزتي ، أيّ وقت قضينا ! » « دعينا نأخذ سلتينا ونمضي إلى السوق . » « وأرخت شعرها وقالت . . . » (الحديث عن رجل آخر) . وثمة نعوت تُطلق على الرجال الجنسيين المثليين مثل « الحسناوات » أو « العاهرات » . إنّ حركات مثل إزاحة خصلة مشاغبة عن الجبين ،وهزّ الردفين وهلمجرا ، ليست مجرد محاكاة ؛ إنها سخرية في المحاكاة[2] .

---

(1) ـ أعلمُ جيداً ان هذا الوصف يلائم النمط الجنسي المثلي السلبي وحده ، أما النمط الايجابي الذي يختار صبياً « متبنّتاً » كموضوع فهو غالباً رجوليّ إلى أقصى حد في سلوكه (قارِنْ كثيراً من الضباط الألمان الجنسيين المثليين) . ولكنني أقتصر هنا على النمط الأول فقط .

(2) ـ يمكن لمحاكاة النساء في الاستيهامات أن تبلغ حدوداً خيالية غريبة ، مثل=

وهذه المحاولة الكاريكاتورية تنمّ عن العداء ، وتدفعنا لأن نفهم أن احتلال مكان المرأة في أدوار الحب والجنس ينطوي على معنى لا واع ، يتمثّل في إزاحة الموضوع ونيل ما كان له من دلالة وأهمية . كما أن هنالك سمات أخرى نادراً ما تكون أقلّ وضوحاً ، رغم إهمالها من قبل الباحثين ـ مثلاً ، الغياب الواضح للحسد والغيرة تجاه النساء . فنحن نتوقّع من الرجل الذي يفضّل الرجال كموضوعات أن لا يغار من النساء . كما أننا لا نندهش من استعداده لتقديم النصح لمعارفة من النساء وصديقاته السيدات حول كيفية كسب الرجال ، والتعامل معهم ، ومغازلتهم ، وحتى حول ملابسهن . بل ويمكن للمرء أن يتفهّم أن رجلاً كهذا يبدي نوعاً من الاهتمام « الأختيّ »(*) بالشؤون الغرامية للنساء . لكن ما يدعو إلى الدهشة في التحليل النفساني للرجال الجنسيين المثليين ليس عدم غيرتهم من النساء ، وإنما محاولتهم اللاواعية لجعلهن يَغَرْنَ .

إنني أتحدث هنا عن مجموعة من الرجال ليسوا جنسيين مثليين بصورة كاملة ، ولا يَقْصرون اهتمامهم كلياً على جنسهم وحده ، وإنما يفضّلون الرجال على النساء وحسب ـ وهي مجموعة تستحق منا اهتماماً سيكولوجياً يفوق اهتمامنا بالجنسين المثليين الجذريين ، ليس لأن أنصاف الجنسيين المثليين هؤلاء أكثر عدداً بكثير وحسب ، بل

ذاك الرجل الذي أطلق على نفسه اسم « العمة كارولين » وراح يتخيّل نفسه عاهرة بجوارب طويلة هاجمها رجل ، أو يتخيّل أنه فتاة لعوب « تلعب عليهم جميعاً دون أن تخصّ أحداً منهم » ، أو حتى امرأة مهجورة ، عندما تخلّى عنه عاشقه الذكر . وأكّد مريض جنسي مثلي أنه لا يستطيع الانجذاب إلى النساء لأنه هو نفسه واحدة منهن . وهؤلاء النساء المزيفات يكرهن الحقيقيات على نحو لا واع . وقد قال أحدهم أثناء التحليل : « لو لم يكن هنالك نساء ، لما كنت جنسياً مثلياً . كل النساء يمكن التخلص منهن ما عدا تلك القلّة التي تخلق الحاجة إلى الفرار منهن نحو الرجال » . إن ما يجمع الجنسيين المثليين بصورة لا واعية هو كراهيتهم الخفية للنساء . ومن الواضح أن عوامل مشابهة تفعل فعلها لدى النساء الجنسيات المثليات .

*) ـ نسبةً إلى « أخت » .

وأيضاً لأن إمكانية الحصول على معلومات أوفى وأكثر أهمية عن سيروراتهم النفسية هي أكبر بكثير .

نلاحظ أن أفراد هذه المجموعة الأكبر ليسوا متبّلدين تجاه سحر النساء وفتنتهن ، بل وأن بمستطاعهم أن يشعروا ببداية اهتمام عاطفي وجنسي تجاه النساء ، ولكن شيئاً ما يحدث عندئذ ويحوّل هذا الانجذابAttractionالأولّي باتجاه رجل . ما هو هذا الشيء ؟ ما الذي يسبّب هذا التحّول في الاهتمام ؟ سأورد بعض الأمثلة : مريض جنسي مثلي اصطحب سيدة إلى الغداء في مطعم وظلّ مستمتعاً بحديثه معها إلى أن دخل شاب وسيم من النمط النسوي وجلس إلى طاولة مجاورة مع مجموعة من الرجال . وعندها اقتصر اهتمام مريضنا على الشاب وحده ، رغم أنه كان قد بدأ للتوّ يحّس انجذاباً نحو رفيقته . وراح يشعر كما لو أنه فقد شيئاً لن يلقاه إنْ لم يتعّرف على هذا الشاب الوسيم . وهكذا التمس ذريعة ، وودّع السيدة ، والتحق بمجلس الشاب . وها هنا حالة أخرى تكاد لا تُصّدق : رجل كان جنسياً مثلياً على الدوام أضحى مهتماً بفتاة ، وتمخّض عن علاقتهما « شأن » حقيقي . وبعد بضعة دقائق من اتصالهما الجنسي ، والذي أدّى فيه وظيفته الجنسية على نحو سوي[3]ولو بقليل من الاشباع ، مضى إلى الهاتف في غرفة نوم الفتاة ، وطلب صبيّه المفضّل ليحدد موعداً معه ، وراح يمازحه ويغازله بينما الفتاة تسمع . أما مثالي الثالث فهو أكثر غرابة بعد : رجل اقتصرت علاقاته الجنسية لبضعة سنين على رجل آخر ، تزوج في النهاية من فتاة جميلة . وبعد بضعة أسابيع ذهبت الزوجة الشابة برحلة قصيرة . وأثناء غيابها شعر الرجل بالقلق ومضى إلى صديقه السابق ليعاود معه اتصالهما الجنسي بإشباع كبير .

ما هي السمات المشتركة في هذه الأمثلة ؟ إن ميل الانجذاب عن الأنثى وباتجاه الذكر هو أوضح من أن يفوتنا ، ولكن هنالك سمات أخرى . ألا نلاحظ نوعاً من الضغينة الكامنة ؟ ألم تُسَق المرأة في كل مثال إلى الاعتقاد بأنها أوقظت اهتماماً عاطفياً لدى الرجل فلا تلبث أن تفهم فجأة وبصورة فظّة أن ذلك ليس صحيحاً ، وأن اهتمامه

(3) ـ ذلك ممكن جداً بالنسبة لكثير من الجنسيين المثليين ، وهم يشعرون آنئذ لا كما الرجال ، وإنما كما يتخيّلون أن الرجال يشعرون ويفعلون في هذا الوضع .

الحقيقي هو برجل آخر ؟ إن سلوك الجنسي المثلي مفعم بالمرامي اللا واعية ، ومهمة السيكولوجي هي أن يضع يده على البواعث الخفية لمثل هذا الموقف المحيّر .

وسوف نعمد هنا إلى مقارنة هذه المواقف بأخرى تشبهها ، علّ ذلك يمكّننا من تخمين هذه البواعث : هنالك ، مثلا ، الظاهرة اليومية ، العادية لانحراف الانجذاب . الأمر الذي نلاحظه في الحفلات وفي أي مكان آخر من المجتمع : شابات متزوجات يغازلن الرجال ، ورجال متزوجون ، شباباً أو كهولا ، يغازلون الصبايا والسيدات الفتيّات . ومن ثم فإن انفعالات الصداقة وحتى انفعالات الجنس المثارة على هذا النحو تنتقل إلى الأزواج والزوجات الشرعيين على التوالي . ولقد كشف زوج أكبر من زوجته بكثير ، لا عن طبعه الشكوك وحسب ، وإنما عن تبصره السيكولوجي غير العادي أيضاً ، وذلك من خلال الملاحظة التي أبداها عند عودة زوجته من إحدى الحفلات . فقد سأل زوجته ، والتي بدت راغبة بممارسة الجنس معه بعد عودتها مباشرة من تلك الحفلة العامرة ، والابتسامة على وجهه : « من الذي أعجبك كثيراً هذه الليلة ؟ » إنّ السيدات الفتيّات لا يفكرن جديّاً بالذهاب إلى الفراش مع الرجال الذين يغازلنهم ـ وإلا لما كُنّ سيدات حقاً ـ كما لا يعاني الرجال أية مشكلة عموماً في كبت أو نقل الإثارة الناجمة عن عبثهم مع النساء الأخريات . ويمكن القول إن الاخلاص فكرة نسبية ، ومسألة تقدير .

ما هي الفروق بين هذه الانحرافات العادية Deviations في الاهتمام وبين الانحرافات Diversions الجنسية المثلية الموصوفة سابقاً ؟ على ما أرى ، ثمة فرقان : الأول ، هو أن الانحرافات غير السويّة تمضي باتجاه الجنس المماثل ، والثاني ، هو أنها تشتمل على عنصر الضغينة والذي يُقْصَد به إثبات شيء ما للمرأة . ويمكن أحياناً ملاحظة هذه السمة الأخيرة في حالات مثل حالة تلك المرأة اللعوب التي تريد زرع الغيرة في قلب زوجها ، ولكن نادراً ما نلاحظها لدى الأسوياء دون مثل هذه النوايا .

ويمكن أن نقترب أكثر من المعنى الخفيّ للموقف الجنسي المثلي عندما نقارنه مع أمثلة تتمّ فيها إثارة غيرة الشخص لخدمة مقاصد أخرى . وسأورد هنا حالة واحدة فقط تكون بمثابة نموذج لكثير من الحالات : أبدى أحد المرضى سلوكاً خاصاً محيّراً في حياته

الجنسية . فقد أمسى عنّيناً بعد أن أخبرته زوجته الشابة الجميلة بمغازلاتها مع غيره من الرجال . ولم يكتف هذا الزوج بتشجيعها على مثل هذه المغازلات ، وإنما راح يقدّم لها النصح عن كيفية جذب وإثارة المعجبين ، والذين هم في معظمهم من أصدقائه . وبالطبع ، كان على الزوجة أن تحترم حدوداً معينة ، ولكنها استخدمت ضمن هذه الحدود كل حِيَل النساء في إثارة الرجال . ومن ثم كان عليها أن تقدّم لزوجها تقريراً مفصّلاً عن أحاديثها مع المعجبين بها وعن محاولاتهم لإغوائها . وأثناء هذا التقرير كان زوجها يتهيّج جنسياً . ومن الواضح هنا أيضاً وجود عامل جنسي مثلي خفيّ وفاعل ، ولكن المصدر الأقوى واللاواعي لتهييج هذا الرجل هو من نوع آخر . إن السبب وراء ازْدياد قدرته الجنسية هو دفق influxقويّ من مصدر الدوافع الأنوية . إن الأمر وكأن الرجل يقول لأصدقائه : « أنتم تبذلون كل ما في وسعكم لإغوائها ، ولكن دون جدوى . أنا وحدي من يمكن له أن ينتزعها ويمتلكها » . وهكذا يسهم شعوره بالتفوق ، وانتصاره على منافسيه ، بصورة حاسمة في تهيجه الجنسي . ويُعَدُّ هذا السلوك بمثابة نسخة مطابقة لموقف الجنسي المثلي .

فبمقارنة ومقابلة مثل هذا السلوك مع سلوك الرجل الجنسي المثلي ـ ابتعاده عن النساء وتفضيله الواضح للرجال ، وعدائه المكشوف في محاكاته الساخرة للجنس اللطيف ـ نجرؤ على أن نحزر المعنى الخفيّ في موقفه . وإذا ما أسّسنا افتراضاتنا على هذه الخصائص ، نقول إن الرجل الجنسي المثلي كان يكنّ إعجاباً عظيماً تجاه النساء في السابق ، وكان يحسدهن ويغار منهن . ولقد تحوّل هذا الإعجاب الأصلي بمفاتنهن إلى اشمئزاز . وبعبارة أخرى ، لقد كان هذا الشخص في طريقه لأن يحبهنّ لكنه لم يحقق هذا الهدف ، أو إنْ كان قد حقّقه ، فإن العداء كان النتيجة النهائية . ولا ندري لماذا . ويمكننا فقط أن نلاحظ أنه يتأرجح الآن بين العداء تجاههن وبذل الجهد لإبعاد اهتمامه عنهن ، ويتخلّل ذلك بين الفينة والأخرى فترات من الانجذاب نحوهن .

ويمكن لنا أن نتوقع من السمة الأخرى أن تكون أكثر إيضاحاً . وهي ذلك النزوع الاستفزازي لجعل المرأة تغار من رجل آخر والمتضافر مع الغيرة من المرأة . وهو نزوع غريب وعارٍ عن الذوق لدرجة أن المرء يشكّ في أنه يدلّ على شيء . لكن ما يبدو

سخيفاً ومنافياً للعقل غالباً ما يكون له معنى لا واعٍ مهم .

وسيساعدنا أكثر هنا أن نستنتج من الأثر effect وجود باعث لا واع ، وهذا على الدوام إجراء له قيمته في التحليل النفسي . والباعث خلف هذا السلوك تكشفه الجهود التي يبذلها الشخص كي يبدو غير غيور وفي الوقت ذاته يزرع الغيرة في قلب غيره . وثمة تفسير واحد فقط : يكنّ الجنسيون المثليون نقمة لا واعية عميقة الجذور ضدّ النساء . ويمكن لنا أن نحزر أصل هذه النقمة . إنها كامنة في الحب الخائب سابقاً ، ربما في الطفولة ، والذي ترافق مع غيرة جامحة . وما شعر به المرء من قبل يتم إيقاظه الآن لدى شخص آخر . فقد هجرت المرأة الصبيّ مرة من أجل رجل ، وهاهو الآن يهجر المرأة من أجل رجل ، ولا يكتفي بقلب الطاولات عليها ، ولا بطعنها الطعنة التي سددتها له من قبل ، وإنما هو يفعل ذلك بالوسائل ذاتها ، مستخدماً سخريته اللاواعية . وكما لو أنه يقول للمرأة ، موضوع حبه الأصلي ، أمه أو أخته : « لقد فضّلتِ رجلاً عليَّ ، وها أنا الآن أفضّل رجلاً عليكِ . لقد احتللتُ مكانكِ ، وسوف أكون محبوباً من قبل رجل » . ويُظْهر سلوكه ، عندئذ ، أنه يُبْعِد الرجل عنها ، كما تغوي المرأة رجلاً وتبعده عمّن ينافسها عليه .

إن الغياب الظاهري للغيرة لدى الجنسي المثلي ، وجهده اللاواعي الدؤوب لأن يزرع الغيرة لدى المرأة ، يُثبت كم عانى بعمق ذات مرة عذابات الغيرة . وليس ارتكاسه مجرد شكل بدائي من الثأر وحسب ؛ بل هو أيضاً بمثابة وقاء يحميه من تكرّر الطعنة . وكأن الرجل يقول : « ذلك لن يحدث لي ثانية » . إنه ، في عزوفه عن المرأة بعد أن صرف تجاهها بعض الاهتمام ، يثأر لذلّه وخذلانه ، لكنه في توجّهه إلى رجل مثله يعبّر عن تهكمه وسخريته : « بمقدوري أن أفعل كما فعلت بي . يمكن لي أن ألعب دور الأنثى بكل ألاعيبه وأحابيله » . ومن الواضح أن القصد من هذا السلوك هو إذلال المرأة والحطّ من شأنها (انظر مثال الرجل الذي اتصل بعشيقه بعد اتصاله الجنسي مع الفتاة) وإظهار الازدراء والاحتقار تجاهها . ويتمّ التعبير عن هذا التنافس مع النساء من خلال أخذ الرجل لمكانهن واضطلاعه بخصالهن النسوية ، ومن خلال محاكاته الكاريكاتورية المستمرة لنواقصهن ومواطن ضعفهن . أما الغياب الظاهري للغيرة فهو

إجراء وقائي لإخفاء الغيظ والأسى . في حين تكشف محاولة زرع الغيرة في قلوبهن أن ذكرى الأسى القديم بقيت بصورة لا واعية وأنها فاعلة لا تزال .

وهكذا يصبح ممكناً تفسير انزياح shiftingالاهتمام والانجذاب . ولنتذكر ذلك الرجل الذي صرف اهتمامه عن السيدة التي يتناول الغداء معها باتجاه شاب وقع عليه دخوله كما تقع إشارة الانذار . وكأني بهذا الرجل يفكّر في لا وعيه : « سوف لن تهتم بي الآن ، بل بهذا الشاب . وأنا لا أريد أن أشعر بتلك الغيرة الممضة وأعاني ما عانيته من قبل . لسوف أجعلها تعاني هي وتغار . سوف أنصرف عنها إلى هذا الشاب الجميل » . وبالطبع ، فإن هذا الموقف يمكن أن يحصل حتى لو كانت المرأة غائبة . ذلك أن حضورها يمكن تأمينه بواسطة الاستيهام .

أما ذلك الشاب المتزوج ، والذي عاد ، خلال غياب زوجته القصير ، إلى عشيقه الذكر ، فلا بدّ أنه فكّر في لا وعيه : « بينما هي بعيدة ، سوف تنجذب زوجتي إلى رجل آخر ؛ ولذا سوف يكون لي شأني مع رجل ، كما قد تفعل هي » . ومع أن الباعث على الثأر يظلّ لا واعياً ، إلا أن من الممكن الإحساس به. وهو لا يتعارض وإنما يثبت وجهة النظر التي مفادها أن موضوع الحب الذي يختاره الرجل الجنسي المثليّ غالباً ما يكون له سمات أولئك الذي أُعجب بهم موضوعه الأصلي . وفي إحدى الحالات التي صادفتها كان الرجل المثليّ يفضّل الشباب الشقر ، طوال القامة ، وذوي البنية الرياضية . ولم يكن العامل الحاسم في تفضيله أن هذا النمط معاكس لنمطه هو ، حيث كان قصيراً وناعماً ، بل أنه النمط الذي أُعجبت به أمه[4] . إن العداء ، والغيرة ، والثأر من

---

(4) ـ الصيغة التي يمكن أن تعبر عن التطور النفسي هي التالية : « تريدني طويلاً وأشقراً ، مثل كارل ـ ولأنني لست مثله ، لا تحبني ، وإنما تحب كارل ـ وأنا أيضاً سأحبه » . إن واحداً من العوامل المهمة في التطور هو الأنا المنكمش de flated egoالمتراكب مع الشعور اللاواعي بالاثم الناجم عن نزوات الحسد والعداء . فشعور المرء بالنقص يمكن ، وإلى حدّ بعيد ، ردّه إلى الطفولة . وقبل أن يتمكن من أن يصير رجلاً بين الرجال ، لا بدّ أن يُعَدَّ الصبي صبياً بين الصبيان . ويسجّل معظم الجنسيين المثليين=

النساء ، مع الإحساس الشديد بالنقص كرجل ،هي بعض العوامل الحاسمة في الجنسية المثلية .

إن المجال المتاح لمناقشة الجنسية المثلية في هذا الكتاب لا يسمح لنا بمعالجة الدور الذي يلعبه تجنّب المنافسة مع الجنس المماثل في تكوّن وتطور الميل باتجاه الجنسية المثلية . فالنزوعات الجنسية المثلية لا تتطور إلا بعد أن يترك الصبي لصبي آخر منتصف الطريق ، متجنّباً منافسته . وإذا ما ظهر التنافس مع الرجال الآخرين ثانية بين انفعالات الجنسي المثلي ، فإن من الممكن اعتباره بمثابة عَرَض مليء بالأمل . وفي إحدى الحالات التي عالجتها أدرك الرجل نفسه هذه الميزة عندما تنافس مع رجل آخر على سيارة أجرة وصلا إليها في الوقت ذاته .

أُدرك تماماً أنني أهملت كثيراً من أشكال الجنسية المثلية في هذه المناقشة . فقد فرض عليَّ الحيِّز المحدود المتاح للموضوع في هذا الكتاب أنْ أقتصر على طور واحد من أطوار هذه المشكلة ، هو الطور الذي يهمّنا هنا لارتباطه مع فكرة الكتاب الأساسية . وهو في الوقت ذاته الطور الذي لم يكتشفه التحليل النفسي حتى الآن . ولقد مرّ زمن طويل منذ أن قدّم لنا البحث فهماً جديداً لهذه المشكلة التي لا تزال دون حلّ . وفي العلم ، ما من أخبار سيئة .

=ان الآخرين سخروا منهم كصبيان وأطلقوا عليهم اسم « خنثى » sissy . وقد شعروا بأنهم غرباء ومنبوذون . وما دام هذا الشعور بالنقص والاثم قوياً ولم يضعف ، فإن الميل الجنسي المثلي سوف يبقى . غالباً ما يسجّل الجنسيون المثليون أنهم،في طفولتهم،كانوا متحفظين مع البنات ، كما لو أن البنات كائنات « لا تُمسّ » وعلى الصبيان أن يخجلوا أمامهن بينما يمكنهم أن يقوموا مع الصبيان بكل ضروب النشاط الجنسي . وليس هنالك أي شك في أن الجنسية المثلية تعني أيضاً قبول الفشل والهزيمة والابتهاج بهما .

ليس ثمة جنس مُصعَّد

الحب ، تبعاً لفرويد ، هو نوع من التطور المكبوح للحافز الجنسي . بيد أنه من الصعب أن نتخيّل كيف يمكن للدافع الجنسي الخام أن يحيد deflectعن أهدافه الأصلية باتجاه الحنان ، وكيف يغدو الحافز مجرّداً من الجنس desexualized ، ويبقى في جوهره جنسياً مع ذلك . فلنأتِ إلى مثال ملموس : الثنائي الشاب ، جون وجين . تُرى ، كيف تطور حبّ جون للفتاة حسب النظرية التحليلية النفسية ؟ إنَّ جين لم تكن في الأصل سوى موضوع لرغبات جون الجنسية . ولكن رغبته الحسيّة كُفَّت عن بلوغ هدفها وعندئذ أضحت الرغبة الواعية موجَّهة إلى الحنان وحده ، في حين بقيت الأهداف الجنسية الأصلية لا واعية . إنَّ من الصعب الاقتناع بمثل هذا التفسير .

والأشدّ صعوبةً بعد هو قبول التحوّل الآخر الذي يدعوه فرويد والمحللون النفسانيون بالتحول الأكثر أهمية الذي يخضع له الدافع الجنسي- التصعيد sublimation . ففي الحب بقي الموضوع على الأقلّ هو ذاته ؛ ولم يتغيّر سوى الهدف . والرجل لم يعد يرغب ، بصورة واعية على الأقلّ ، بالإشباع الجنسي بالدرجة الأولى ، وإنما بالحنان والرفقة . أما في عملية التصعيد ، فقد قيل لنا إنَّ طاقة الدوافع الجنسية تحيد عن غايتها الأصلية وتُستَخدم من أجل مقاصد أخرى ، لتحقيق مرامٍ ليست جنسية وإنما ذات قيمة اجتماعية أو أخلاقية أسمى . ويؤكّد التحليل النفسي أن منجزاتنا الثقافية ناجمة ، وإلى حدّ بعيد عن الطاقة المعاد توجيهها لهذه النزوات الجنسية .

لنعد ثانية إلى جون جين . إذا ما صادف جون عقبات خارجية أو داخلية تمنعه من المضيّ إلى الفراش مع جين ، فإن طريقاً آخر ينفتح حينئذ للتخلص من الرغبة الجنسية التي تثيرها الفتاة الفاتنة لدى هذا الشاب . ويمكنه أن يستغّل هذه الطاقة الجنسية في كتابة رواية أو في إحراز تقدم في المصرف الذي يعمل به . ويطلق المحللون

على استحالة metamorphosis الدافع الجنسي هذه اسم التصعيد .

وسرعان ما أصبح المصطلح صيحة حرب . وفي آنٍ واحد تقريباً راح مثقفو نيويورك دفعة واحدة يستخدمونه في مناقشاتهم وقفشاتهم («الزواج خير من التصعيد(*)) لكنّ للمسألة جانبها الجديّ على أية حال ، أعني أنه يجب التساؤل عمّا إذا كان مثل هذا التحول موجوداً أم لا . هل يمكن لجون ، الذي يبتغي مضاجعة جين ، أن يغيّر حقاً الطاقة الجنسية التي تملي عليه هذه الرغبة باتجاه كتابة الرواية الأمريكية العظيمة ؟ وهل الحماس الذي يشعر به حين يفكّر بالحبكة والشخصيات وحين يضرب مخطوطته على الآلة الكاتبة هو حقاً من منشأ جنسي وذو طبيعة جنسية ؟ وهل يمكن للدوافع الجنسية أن تحيد هكذا عن هدفها الأصلي بحيث يمكن لطاقتها أن تُستخدم من أجل هذه المقاصد الأكثر سمواً ونبلاً .

إنْ لم يرغب جون بجين (ولا بأية فتاة أخرى) على الاطلاق وانشغل بأفكار واستيهامات تتعلّق بروايته وحدها ، فأين هو مبرر الافتراض بأن طموحه الجديد ينجم في الأصل عن الدوافع الجنسية ؟ نحن لا ننكر أن جون يعزف عن جين ويستغّل طاقته كلها كي يصبح كاتباً عظيماً ، أو مدير مصرف ، ولكننا لا نعتقد أن هذه الطاقة هي جنس مجرد من الجنس . أليس من المحتمل أكثر أن طاقة جون تحركت من ميدان الدوافع الجنسية إلى منطقة نزوات أخرى ، مختلفة ؟ دعونا نختار مقارنة أخرى : جون جائع جداً وليس لديه سوى القليل من المال . إنه يريد الذهاب إلى المطعم ، لكنه يتخلّى عن الغداء ويزور معرضاً فنياً عوضاً عن ذلك . فهل يمكننا القول أن رغبته في رؤية لوحات رامبرانت تعادل تصعيد جوعه الأصلي ، أي ذاك الإحساس المزعج بفراغ معدته ؟ وهل هي الشهية ذاتها ، في أصلها وطابعها ، تلك التي تُشْبَع في المطعم وفي المعرض الفني ؟

لقد بيّنت آنفاً أن كلمة جنس تعني بالنسبة لي التعبير عن دافع بيولوجي محض هو

(*) ـ في هذه العبارة ثمة لعب على الألفاظ بين كلمتي mate (يتزوج) و sublimate (يصعد) .

في شكله الأصلي بدئي وأولي شأن الجوع أو حاجات الإطراح . ولا يمتلىء الدافع الجنسي بدلالته العظيمة إلا بتحالفه مع دوافع غير جنسية . وما لم يتحالف على هذا النحو ، فإنه لا يكون عاملاً من عوامل تشكيل الثقافة . وحتى المؤسسات التي ترتبط عادة بالحياة الجنسية ، كالزواج مثلاً ، لا يمكن ردّها إلى الحاجات الجنسية الخام وحدها . وما من إجراء في العالم يمكنه أن يقلب التهيج الجنسي طاقةً إبداعية ، ثقافية ويحوّله إلى مساعٍ سامية . وبعبارة أخرى ، إن رغبات الجسد الجنسية لا يمكن لها أن تنقلب حكمة وفنون قيادة . وليس لدى الدافع الجنسي فرصة للتصعيد على شكل طاقة إبداعية وثقافية إلا بقدر ما لدينا جميعاً فرصة لأن نتحول بعد الموت إلى ملائكة نورانية محيّرة(*) ترنّم التراتيل في السماء .

إن الزعم الذي مفاده أن الدافع الجنسي الخام يمكن استخدامه كمرقاة إلى أهداف ثقافية رفيعة ليس فيه من المعنى إلا بقدر ما في التأكيد على أن حاجة التبوّل يمكن أن تحيد عن اتجاهها وأن الضغط الناتج يُنْتَفَع به كطاقة من أجل تحقيق مرامٍ نبيلة . إنّ فكرة تصعيد الدافع الجنسي تبدو للوهلة الأولى معقولة وحاذقة . تخطر في ذهنك قصائد الحب ، وسوناتات بتهوفن ، وكثير من المآثر الإنسانية الناجمة عن الطاقة النفسية للحب غير المحقّق ، والرغبة والتوق . ولا شك أنّ طواحين كثيرة تديرها هذه الريح . ومع ذلك ، فإن هذا التشوّف العظيم ليس الدافع الجنسي الصرف أبداً . إنه الحب ، والذي يختلف في منشئه وفي طبيعته . أما المحللون النفسانيون فلا يرون سوى قوة الجنس ، ويرفضون أن يغنّوا أغنية القوة الأخرى أو يرقصوا رقصتها ، مع أنها القوة التي جاءت منها معظم الرقصات والأغاني .

يمكن للحافز الجنسي الخام أن يُشْبَع بسهولة وهو غير قابل للتصعيد أبداً . وإذا ما تهيّج بقوة ، فإنه يحتاج ، بإلحاحيته ، إلى إطلاق مباشر . فهو لا يمكنه أن يحيد عن هدفه الأول إلى أهداف أخرى ، إلا بقدر ما يمكن ذلك لحاجة التبول أو حاجة الجوع والعطش . وهو يلحّ على الإرضاء في ميدانه الأصلي . ولا يمكن تحقيق إشباع هذا الحافز

(*) - sexless لا هي بالمذكرة ولا بالمؤنثة .

المحدّد عن طريق استبدال هدف بآخر . وأودّ أن أتابع هذه النقطة إلى النهاية ذلك أن الوقت قد حان لوضع حدّ للتشوش العام السائد الآن . وأنا أتحدث هنا عن الدافع الجنسي الخام ، لا عن تلك الأشكال التي يلتحم فيها مع دوافع أخرى . كما اشير إلى الجنس في طبيعته البسيطة والأولية ، وهذا بالضبط ما عناه فرويد في الأصل عندما استخدم مصطلح الجنس .

إذا ما حاول باحث إقناعنا بأن حافز العطش أو الإطراح يمكنه أن يحيد باتجاه إنجاز مآثر ثقافية ، فإننا لن نصدقه . ذلك أن الاكتشافات العلمية العظيمة ، والقصائد والسمفونيات لا تدين بوجودها إلى الإخفاق في إشباع هذه الحاجات الحيوية . ولستُ ملِّماً بالأدب والموسيقى الأكثر حداثة ، ولكن حتى بضع سنين خلت على الأقل كان من الواضح أن ما من قصيدة أو مقطوعة موسيقية مهمة ناجمة عن العطش المكبوت أو عن رفض إفراغ المثانة . فلماذا علينا ، إذاً ، أن نصدّق أن المآثر الثقافية هي نتيجة لِحَيَدان deflection الحاجة الجنسية الفيزيائية عن اتجاهها ؟ ولماذا ، والحالة ليست هذه ، ندعوها جنساً وندمغها بدمغة خاطئة .

كل الدلائل تكذّب النظرية التي تزعم أن الدافع الجنسي الخام يمكن أن يتصعّد ، في حين تؤيد الأبحاث كلها وجهة النظر التي تقول إن طاقة دوافع الأنا يمكن استخدامها ، من خلال تنبيه مطامح البشر وآمالهم ، لتحقيق مآثر ثقافية . والحب ذاته ينتمي ، كما سأحاول أن أبيّن ، إلى هذه الدوافع ، وهنالك فضلاً عنه حاجات التميّز الاجتماعي ، والتنافس ، والغرور والخُيَلاء ، وكلها تنبثق عن هذه الدوافع القوية والتي ندين لها - وفي بعض الأحيان لها في التحامها مع الدافع الجنسي - بمعظم منجزاتنا الحضارية ، بدءاً من الجهود المبذولة لإرضاء حاجاتنا البدئية ، وحتى تحقيق أعظم المآثر . وآمل ، مع هذا التفريق ، أن تُسدل الستارة ببطء على النظرية التي تزعم أن الدافع الجنسي الخام يسهم بمعظم الطاقة الإبداعية للتقدم البشري .

اعتراض مطروح

في الفصل السابق أسدلتُ الستارة على النظرية التي تزعم أنّ الدافع الجنسي يمكن أن يتصعّد . ووجدت نفسي متردداً ومحتاراً للحظةٍ قبل الختام كما لو أنّ شيئاً لا بدّ من معالجته قبل أن نصرف النظر عن الموضوع بصورة نهائية .

طالب شاب يدرس السيكولوجيا ومطّلع على وجهات نظري ، طرح اعتراضاًجدياً بما يكفي لأخذه في الحسبان . وأرسل إليّ رسالة أقتبسُ منها بعض الفقرات :

« هَبْ أن رجلاً لديه دافع جنسي حبيس إلى هذا الحد أو ذاك ويلتقي بفتاة . ويعتقد هذا الرجل أنها جميلة وأنه يحبّها وتحبّه . يتصلان جنسياً ومن ثم ينتهي كل شيء ، ففي اليوم التالي تماماً ، يكتشف أنها بعيدة كل البعد عن المثال ideal الذي يبتغيه أو أن هنالك عشرات الأشياء التي تعترض حبه الحقيقي لها . وإذا ما لاحظ هذا النزوع لديه مرة بعد مرة فربما يستنتج أن الفرويديين وغيرهم على صواب ، ذلك أن اللبيدو المحبَط لديه يتصعّد جزئياً إلى عاطفة وحنان وأنه يتنكّر بهيئة الحب ما دام الضغط (من اللبيدو) موجوداً . وبالطبع ، فإن سؤالي هو : أين اقترف هذا الرجل خطأه ؟ يبدو للوهلة الأولى ، وفي هذه الحالة المحددة ، أن فكرة التصعيد مثبتة ببرهان . ومع ذلك ، فإني أوافقك على أن الحياة أكثر صعوبة وتعقيداً ، فقد قرأت كتابك[1] . . . وآخذاً في الحسبان ما قلتَهُ في هذا الكتاب ، سأحاول أن أجيب كما يلي : إنّ ضغط (أو دفع) الدافع الجنسي الحبيس ينزع إلى تشويه أو إخفاء مثال الأنا ego – ideal الحقيقي ، وبخاصة الجزء اللاواعي منه والذي يشكّل معظمه . أما بعد أن يُشْبَع هذا الجوع

---

(1) - نظرات سيكولوجي إلى الحب ، نيويورك ، 1944 ، ولقد حذفت من رسالة الطالب في هذا الموضع مقطعاً يطري فيه الكتاب .

الجنسي ، فإن الخصائص المعنوية يمكن أن تتركّز في بؤرة تُظْهر مدى ابتعادها عن المثال عادة . وبالطبع فإن ما قلته للتوّ يَقْصُر سواء في محتواه أو في أسلوبه عن إشباع حاجتي إلى جواب كامل . »

إن هذه المساجلة لمن المساجلات التي تتقدم بروح البحث عن الحقيقة ، وهي تستحق الاهتمام والردّ بأمانة وبأحسن ما يعرف المرء ، بعكس بعض الرسائل السخيفة أو الوقحة . ويمكن التأكيد على وزن أو جدارة هذه المساجلة بحقيقة أن اثنين من أعظم السيكولوجيين حدسا بها ـ آرثر شوبنهور وسيغموند فرويد . فقد أشار فرويد في أحد المقاطع من كتاباته إلى أن الجنس (بمعناه الموسّع) يستنفد ذاته دورياً في الفعل الجنسي وأنّ على الرغبة إذّاك أن تنتظر حتى يُثار ثانية . والانفعالات التي يصنّفها فرويد تحت مصطلح الجنس ، ومن بينها الشكل المصعّد من الحنان ، تجد في الفعل الجنسي إطلاقها الذي تمكن مقارنته بالانفجار . وتبعاً لوجهة النظر هذه فإن الظاهرة التي يلاحظها طالبنا هي إذاً ظاهرة شائعة ويمكن تفسيرها بطبيعة الدافع الجنسي ذاتها .

وعند شوبنهور أيضاً الحب هو « دافع جنسي تفريقي ، تخصيصي ، وبمعنى دقيق تمييزي[2] » . ويرى شوبنهور أن التقدير الفائق للموضوع وشدّة الهوى تجاهه مشروطين بحقيقة أن نوعية quality الجيل اللاحق تعتمد على اختيار الشريك . وأن إرادة النوع تحيا في الحافز الذي يحفّز المحبّ على الرغبة في موضبوعه . وهكذا يتنكّر الدافع الجنسي بقناع الإعجاب الموضوعي لأن الطبيعة تحتاج هذه البراعة في التدبير من أجل مقاصدها .

إن تزايد الهيام لدى كلا المحبَّين قبل الاتصال الجنسي مباشرة هو في حقيقته إرادة الفرد الجديد في أن يتكوّن ويحيا . والطبيعة تحتال على المحبّ وتسوقه لأن يتخيّل أنه راغب باشباع شخصي عميق ، بينما هو في الحقيقة يعمل على تأبيد نوعه . ولقد رسّخت الطبيعة هذا الضرب من الوهم ، والخداع ، الذي يموّه باعثاً أنانياً بقصد حفظ النوع :
« وتبعاً للطابع الموضّح هنا فإن كلّ محبّ يعاني ، بعد بلوغه الإشباع في النهاية ،

(2) ـ « ميتافيزيقيا الحب الجنسي » ، في «العالم كإرادة وتمثّل » ، الجزء الثاني .

خيبة أمل غريبة ويَعْجَب أنّ ما رغب به بكل هذا التوق الشديد لم يُعْطِه ما يزيد على أي إرضاء جنسي آخر . . . وكل محبّ يجد نفسه مخدوعاً بعد إتمامه الفعل العظيم ؛ ذلك أن التضليل الذي تستغفل الطبيعة بواسطته الفرد يكون قد اختفى . »

وعبّر شوبنهور أيضاً عن أن حبّ الرجل يتناقص كثيراً بدءاً من لحظة تحقيقه لإشباعه : « تقريباً أي امرأة أخرى تجذبه أكثر من تلك التي سبق له أن امتلكها » . ويفسّر الحب هكذا بأنه قناع لهدف الطبيعة ، و « الدليل على ذلك هو أن هذا الهوى العظيم ينطفىء بإروائه ، وسط ذهول المحب » . وبعد تحقّق إرادة النوع ، فإن الوهم الذي ليس له قيمة إلا بالنسبة للنوع ومع ذلك يعني للفرد ذروة السعادة ، لا بد أن يتلاشى . وروح النوع ، التي تملّكت الفرد ، تعتقه ثانيةً . فيتقهقر ، وقد تخلّت عنه هذي الروح ، إلى قيده وبؤسه الأصليين ويدرك مذهولاً أنه لم ينل من المتعة بعد هذه المكابدة الرفيعة ، البطولية واللامتناهية أكثر مما يضمنه كل إشباع جنسي . ولا يشعر ، بعكس توقعاته ، أنه أسعد من ذي قبل . ويدرك أن إرادة النوع خدعته واحتالت عليه .

إن في وجهتي نظر شوبنهور وفرويد الكثير مما هو مشترك . فكلاهما يريان في الحب اشتقاقاً من الجنس يتبدّد بالاتصال الجنسي ، ويربطان الهبوط المفاجىء في الهوى بعد هذا الاتصال بإشباع الحافز . وطالِبُنا ، الذي لم يقرأ شوبنهور ، لديه وجهات نظر مشابهة ويفترض أيضاً أنّ الفرد مخدوع أو يخدع نفسه ، فقط كي يتحقّق من أنه كان ضحيةً للوهم . وعلى أية حال ، فإن طالِبنا لا يبلغ الحدّ الميتافيزيقي الذي بلغه شوبنهور ، الذي يتّهم الطبيعة بالتحايل ، وإنما يقتصر على حدس مفاده أن ضغط الحافز الجنسي هو المسؤول عن التضليل .

ليس هنالك أيّ شك في صوابية التوصيف الذي يقدّمه شوبنهور ، وفرويد ، وهذا الطالب . ولقد صوّر وليم هوغارت هاتين الحالتين الانفعاليتين في لوحتيه « قبل » و « بعد » ، كما عبّر آرثر شنتيزلر عنهما تعبيراً لا يُنسى في حوارياته السوداوية والمسلّية **Hands Around** . إن رصد التزايد التناقص في التوتر الانفعالي هو رصد دقيق . ولكن السؤال هو ما إذا كان التفسير صائباً . فأنا لا أجد أية ضرورة للزعم بأن الطبيعة

تغشّنا . ففي نسبة مثل هذه النزوعات إلى الطبيعة تجسيم anthropomorphism مفرط ، ونسيان أننا لسنا سوى جزء صغير مما أبدعته الطبيعة .

في محاولتي الخاصة لتفسير هذه الظاهرة سيكولوجياً أختار منطلقاً لتمايزي أن أنظر إلى هذه الحالة الانفعالية باعتبارها تنمّ عن فروق فردية ملحوظة ، رغم دقّة الصورة العامة التي رُسِمَتْ لها . فتناقص اهتمام الرجل بشريكته ليس حاداً دائماً وقاطعاً كما يصفه الطالب . وهو نفسه قد يعترف عن طيب خاطر أن ثمة فروقاً فردية في الارتكاس تختلف باختلاف الشركاء وحتى مع الشريك نفسه . ونحن ندرك أن عاملاً مجهولاً ، لم يحسب حسابه فرويد ولا شوبنهور ولا مُراسلنا ، يلعب دوراً معيناً ويحدّد ، إنْ لم يكن الطابع العام ، فعلى الأقل شدّة الارتكاس . كما أنّ هنالك بَعْدُ الحقيقة المثبتة والتي مفادها أن الاتصال الجنسي ليس له مثل هذا المفعول المُصَحّي sobering على النساء . فالاتصال الجنسي بالنسبة لهن لا يسدّ طريق الحنان ، بل يفتحه . وهن يرتكسن كما لو أن الألفة الجسدية تزيل العوائق التي حالت في السابق دون التعبير عن العاطفة ودون تدفقها الحر . أليس هذا أيضاً إشارة إلى أن عاملاً مجهولاً يؤثّر على الارتكاس ؟

وإليكم محاولتي في حلّ هذه الاشكالية : كما قلت من قبل ، إن الجذب الذي يمارسه فرد من جنس معين على فرد من الجنس الآخر هو ، عادةً ، نتيجة لمزيج من الحافز الجنسي ، وإرادة الانتزاع ، والعاطفة . ومن بين هذه العوامل الثلاثة الدافع الجنسي هو الأكثر عماءً وعدم قدرة على التمييز بين الأشخاص ؛ والعاطفة هي الشدّ الأكثر شخصية ، بينما تشغل شهوة الإنتزاع موقعاً وسطاً بين الاثنين . والحافز الجنسي ورغبة الانتزاع بدئيان وأوّليان . أما الحب فهو نتاج للتطور الثقافي ، وفي الواقع ، نتاج لتحوّل حافز الانتزاع الغريزي ، عبر تأثير الحضارة . إن قوة الهوى التي تشدّ شخصاً إلى الشخص المرغوب هي محصلة هذه القوى الانفعالية الثلاث ، والتي تتحد بقصد تملّك الموضوع . ولا يجب أن نستخفّ ولو للحظةٍ بحقيقة أن التملّك لا يعني الشيء ذاته لدى المحبّ ولدى المتهيج جنسياً . فهو يعني بالنسبة للأول اتحاداً انفعالياً ؛ أما بالنسبة للثاني ، فيعني نفوذاً واختراقاً جسدياً . وكلا الهدفين لا يتوافقان ، لكن أياً منهما لا ينفي الآخر . فالاتصال الجنسي يمكن أن يغدو التعبير الجسدي عن المودّة والعاطفة .

ودعونا الآن نتأمل من وجهة النظر هذه الارتكاس الذي يشغل اهتمامنا . إنّ المكوّنين الأشدّ قوة في المزيج ، أي الرغبة الجنسية وإرادة الانتزاع ، يجدان تحققهما في الفعل الجنسي . أما العامل الثالث ، أي العاطفة الفردية ، التي قد لا تكون موجودة بالضرورة ، والتي ، إن وجدت ، قد تتنوع شدتها إلى حدٍّ بعيد ،فهي مفتقرة لما لدى العاملين الأولين من قوة إكراه . وهي كنتاج للحضارة ليست ندّاً لهذه الدوافع الأولية القوية التي تتبارى معها بين الحين والآخر . وهكذا فإن الأثر الانفعالي للاتصال الجنسي سيتحدد من خلال الارتخاء relaxation المفاجىء الذي يجده في الاشباع كل من العاملين الأكثر أهمية ، الجنس وشهوة الانتزاع . ويكون انخفاض التوتر التالي نتيجة لإشباع هذين الحافزين الملحاحين .

ومن الواضح أن مقدار الطاقة النفسية يتضاءل كثيراً عندما يتحقّق القسم الأقوى والأشدّ إلحاحاً من مطالبها .

وهكذا فإن الفارق بين قبل وبعد يماثل ضعف التيار الكهربائي . فالأثر هنا هو ذاته كما حين نستبدل بمصباح جوبيتر Jupiter – Lamp،الذي يُسلَّط على شخص ما فينيره تماماً ، مصباحاً قوته خمسة وأربعون واطاً . وعندها تبهت ملامح الشخص وتعتم .

هذا التفسير لا يحسم مسألة الاهتمام المتضائل إلا بطريقة عامة أو ميكانيكية . وقبل أن نتابع سنحاول أن نقرر أياً من الدافعين يحظى من الاشباع بحصة الأسد . ويبدو الجواب سهلاً ،بالنظر إلى طبيعة الفعل . لا بد أنه الحافز الجنسي . ولكن من المحتمل أن تقرّر الفروق الفردية لمن تكون الغلبة . فالدافع الجنسي ينال الإشباع الأعظم لدى شخص ما ؛ في حين تنال حاجة الانتزاع هذا الإشباع لدى شخص آخر . ولمّا كان اتحاد هذين الدافعين يجعلهما ملتحمين دون انفصال تقريباً في هذا الوضع ، فإنّ القرار صعب . ولقد أقنعت الملاحظة الذاتية الدقيقة كثيراً من الرجال أن انتصار الانتزاع هو بالنسبة لهم أكثر أهمية من المتعة الجنسية بحدّ ذاتها ، أو أقنعتهم أنّ إشباع حاجة الانتزاع يلعب دوراً كبيراً في الإشباع الجنسي . وعودةً إلى ملاحظة الطالب السيكولوجية ، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن تناقص الاهتمام بالشريك ينجم إلى حدّ بعيد عن إرضاء شهوة الانتزاع . ولدى تحليلي كثيراً من تجارب الرجال اكتشفت أن هواهم

يبدأ بالتناقص حتى قبل الفعل الجنسي ؛ وبدقة ، منذ اللحظة التي تبدو فيها المرأة مستعدةً للاستسلام .

وعلى أية حال ، فإن الإشباع المتأتي عن انتزاع المرأة يتوافق لدى عدد كبير جداً من الرجال أو لدى نمط معين منهم مع تضاءل الاهتمام المحموم المُسْتَشْعَر من قبل . فإشباع شهوة الانتزاع يجرد الموضوع المرغوب من كثير من فتنته وسحره . وغالباً ما يزيل التملّك الحافزَ الذي جعل كل الرغبات الأخرى ، قبل الفعل ، تبدو باهتة دون أهمية .

لسنا بحاجة بعد إلا إلى إضافة بضعة ملاحظات مؤقتة حول الحقيقتين المحددتين آنفاً . إن تناقص الاهتمام بالشريك بعد الاتصال الجنسي ، كما قلنا ، ليس حاداً دائماً ومفاجئاً كما في الحالات الموصوفة . كما أن هنالك أدلّة كافية للتأكيد على أن المرأة تبقى مرغوبةً ومحطّ إعجاب حين تُلْهِبُ عاطفة قوية لا مجرد جذب عابر . وعندها قد لا يتضاءل الحنان تجاه الموضوع بعد إشباع الحافز الجنسي ورغبة الانتزاع . وما يصفه شوبنهور ، وفرويد ، والطالب ليس له قيمة عامة ، وإنما هو فقط تجربة تتكرر لدى الرجال .

أشرتُ إلى أن النساء لا يشعرن بعد الاتصال الجنسي بذاك الانعتاق من السحر الذي يشعر به الرجال . بل إنَّ عاطفتهن لتزداد شدّة ، كما لو أنهن ممتنّات للرجل . وقد يكون هنالك أسباب عديدة هي المسؤولة عن هذا الفارق في الارتكاس بين الرجال والنساء . فالفعل الجنسي لدى النساء ليس له طابع الواجب أو الاختبار الذي يؤدّى . كما أن إرادة الانتزاع في شكلها العدواني هي بالتأكيد أقلّ تطوراً لديهن منها لدى الرجال . وأخيراً فإنّ درجة معينة من العاطفة أو الحنان تبدو وكأنها شرط أساسي للإشباع الجنسي عند النساء . ومن النادر أكثر بالنسبة لهن ، قياساً بالرجال ، أن يرغبن بالاتصال الجنسي لمجرد إشباع الحافز الجنسي الخام . ونادراً ما يُظْهِرنَ التملّك دون أثر للعاطفة . وأنا لا أنكر أنّ هذه الإمكانية قد تصبح واقعاً لدى النساء أيضاً ، ولكن من الواضح أنهنّ لا يمكن أن ينلن إشباعاً عميقاً في مثل هذه الشروط .

أُدْرِك جيداً ما في هذا التفسير السيكولوجي من نواقص ، لكنه أفضل ما لديّ

الآن . ولقد حسمتُ مسألةً واحدة من خلاله : ليس هنالك أيّ تصعيد للدافع الجنسي . فهذه مسرحية فاشلة وسوف لن ترتفع الستارة عنها كي تؤدّى من جديد .

ليس للعُصاب منشأ جنسي

من الضروري هنا أن نبدي بعض الملاحظات حول سيكولوجيا العصاب ، حيث يؤكّد التحليل النفسي أنّ المشاكل العصابية هي دوماً اضطرابات في الحياة الجنسية . ولقد كان لوجهة نظر فرويد هذه ، والتي هي مغلوطة تماماً وغالباً ما أُسيء فهمها وتفسيرها ، أثر مشؤوم لأن كلمة جنس أُخِذَتْ بمعناها الأكثر أولّية . وها أنا أعترف صراحةً ، بعد أربعة وثلاثين عاماً من الممارسة والبحث التحليليين ، أنّ وجهة نظر فرويد في السببية الجنسية sexual etiology للعصاب تبدو لي خطأً فاحشاً ، وأعتقد أن نظرية اللبيدو مبنيّة على أساس فاسد . لا شك أن الرغبة الجنسية غير المشبعة يمكن أن تسبّب مصاعب ، بل واضطرابات من النوع النفسي ، ولكن بالطريقة ذاتها التي يسببها الجوع الشديد الذي لا يعرف للشبع طريقاً وليس بأية طريقة أخرى . وعليَّ أن أقول ،فضلاً عن ذلك ، أن الاضطرابات الناجمة عن الرغبة الجنسية هي أقلّ من الاضطرابات الأخرى ، فبينما نجد حالات لا يمكن فيها إشباع الجوع ، نلاحظ أن الغريزة الجنسية العنيفة والموجعة يمكن إشباعها دوماً ـ من خلال الإشباع الذاتي البدئي عند الضرورة ، عن طريق الاستمناء masturbation . أما الدوافع الأخرى مثل الجوع والعطش فلا تتاح لها مثل هذه الفرص .

ولكن ألا تلعب الاضطرابات الجنسية دوراً كبيراً في أعراض العصاب ؟ هل فرويد مخطىء تماماً ؟ أجل ، إن فرويد مخطىء في هذه النقطة المحدّدة من مفهومه عن الجنس ، مع أن المصاعب الجنسية تبدو واضحةً في أعْرَاضية symptomatology العصاب . وما من تعارض في هذا القول . فحقيقة أن الرغبة الجنسية تبدو ، غالباً جداً ، وعلى نحوٍ منتظم تقريباً ، كواحدة من المصاعب الأساسية لدى العصابيين ، لا تُثبت أنّ العصاب ناتج عن الافتقار إلى الإرضاء الجنسي . وإنه لمن مجانبة الصواب

بالنسبة للطبيب تشخيص أعراض مريض لديه صعوبة تنفسية باعتبارها دليل مرض في الرئتين ، ذلك أن التنفس ، كما هو معروف ، غالباً ما يُعاق بالقصورات الوظيفية للقلب .

أما بالنسبة للتحليل النفسي ـ الجديد فإن مشاكل ومصاعب العصابيين الجنسية تبدو بمثابة العَرَض الأبرز لسبب أعمق جذراً . والوظيفة الجنسية من وجهة النظر هذه هي مجرد موظّف رئيسي لدى سلطة مركزية . وحين يخفق هذا الموظّف لا بدّ أن يكون هنالك خطأ ما لدى الحكومة التي يمثّلها . إن إعلان فرويد الأساسي عن السببية الجنسية للعصاب هو إعلان خاطىء . فمن دون ضعف في الأنا ما من عصاب ممكن . والعصاب هو اضطراب في الشخصية كلها ، وليس في مجالها الجنسي وحده .

ليس هذا مجال تقديم نظرية في منشأ وطبيعة العصاب . وسوف أقتصر على ملاحظات مؤقتة مفادها أن العصاب اضطراب انفعالي ناجم عن تزعزع الثقة بالنفس لدى شخص ما . وهو اضطراب يؤدي إلى ضروب من القلق ، والكفّ ، وأعراض تعكس الإخفاق في تحقيق غايتين ـ الحب والعمل .

إذا ما نظرنا إلى أولى هاتين المأثرتين اللتين تتطلبهما الحضارة من الفرد ، لا بد أن نسأل إنْ لم يكن صائباً أنّ المصاعب الجنسية تلعب دوراً كبيراً في تاريخ أعراض معظم العصابيين . إنها تفعل ، لكن هذه المصاعب ليست السبب في العصاب ، وإنما هي عملياً أثر لاضطرابات في الأنا . ومن الضروري إعادة العربة إلى مكانها الصحيح بعد أن وضعها المحللون النفسانيون أمام الحصان . فالأمر يختلف اختلافاً عظيماً إذا ما قاربنا المشكلة باعتبارها سبباً أو أثراً . ويبرر لنا طابع التحليل النفسي إجراء مقارنة نستمدّها من الكيمياء : إن النتيجة ليست ذاتها عندما نصبّ الماء على حمض الكبريت وعندما نصبّ حمض الكبريت على الماء .

إن تأكيد المحللين النفسانيين على أن كل عصاب له سببية جنسية يقوم على خداع بصري . وهذا ليس مجرد رأي ، وإنما هو واقع . ومن الممكن دون شك إثبات أن فرويد لا يفرّق ، حين يتحدث عن الجنس ، بين مكوّنات ثلاثة : الدافع الجنسي ،

وحافز الانتزاع ، والرغبة العاطفية . وهذا ما أثبتناه في هذا الكتاب . إن ضروب الكفّ ، والقلق ، وأعراض العصاب لا تنجم عن أية صعوبة في إشباع الحاجات الجنسية الصرفة والبسيطة ، وإنما عن الإخفاق في تحقيق إشباع متزامن لدافع التسلّط ومطلب الحب وعن الإخفاق في جعل الموضوع الجنسي، موضوعاً للحب أو الشخص المحبوب موضوعاً جنسياً . وليس ثمة عصاب في المستويات الحضارية الدنيا . فهو ابن الحضارة التي تقدّمت ثقافياً ، ولكنها لم تتقدّم بما فيه الكفاية . والعصاب الناجم عن الحافز الجنسي غير المحقّق وحده لا يمكن تخيّله . فهو ينجم دوماً عن إخفاق الجهد الفردي المبذول لجعل الجنس والحب وشهوة السلطة في انسجام .

إنَّ الأنا ، وقد تحدّته الحوافز الغريزية من جهة والمتطلبات الثقافية من جهة أخرى ، يفرّ ، وقد أُضْعِفَ كثيراً ، إلى ملجأ العصاب . وخلف المصاعب الجنسية ، التي يمكن إزالتها بيسر ، إنْ كانت ناجمة عن الدافع الجنسي وحده ، تكمن إشكاليات جدّية وخطيرة ـ إشباع كل من الرغبة الجنسية والجوع الملحاح للعاطفة ، فضلاً عن رغبة المرء في أن يكون محبوباً ومميّزاً . ولكن الجنس ، عند مستوى ثقافي معين ، لا يمكن إشباعه إن لم تُشْبَع أيضاً متطلبات الأنا ، وخاصةً متطلبات الحب . ويعتقد معظم تلاميذ فرويد أن الخوف من الجنس ، والشعور بالأثم الناجم عنه ، والخوف من الخصاء castration هي العوائق التي تحول دون الحياة الجنسية المشبعة . ولكنهم مخطئون على نحو يثير الأسى . ففي المستوى الثقافي لأولئك الذي يخضعون وحدهم للعصاب ، لا يمكن أن يكون هنالك حياة جنسية مشبعة لا تُشْبِع متطلبات العاطفة أيضاً ، وتكون حياةً حبيّة مشبعة في الوقت ذاته .

وإليكم حالة ، واحدة من بين آلاف الحالات ، تُظْهِر أية عواقب تنجم عندما يُؤَسَّس تحليل العصاب على السببية الجنسية المغلوطة : عانت امرأة شابة ،مطلّقة ، أعراض قلق شديد . وحاول محللها النفساني أن يخلّصها من شعورها بالإثم المتعلّق بالجنس ، آملاً أن يزول قلقها بإقامة علاقات جنسية مع رجال آخرين . وأخفقت المحاولة ، ثم أُعيدت ، لكنها فشلت من جديد . ولم يَزُل قلقها بمضاجعة رجال مختلفين . فالحب وحده يمكنه اجتراح هذه المعجزة ، لكن المحلّل لم يتعامل إلا مع

« وقائع الحياة » كما يراها هو ؛ وتتوافق هذه الوقائع ،بالنسبة له ، مع وقائع الحياة الجنسية . وهكذا استمر قلق المرأة ، بل وتفاقم ، كما هو متوقع لهذه العلاقات الجنسية غير الشرعية حين تقيمها أية امرأة حسنة التربية مع رجال ليس لديها تجاههم أيّ اهتمام . ولم تتمّ الإشارة في تحليلها أبداً لكلمة أو فكرة الحنان . كانت الفكرة الوحيدة هي الجنس والشعور بالإثم المرتبط بالنشاطات الجنسية . ولا شك أن فرويد ، الذي أُعْتَبِرُ وجهات نظره في الجنس مغلوطةً ، لم يصل به الأمر أبداً إلى حدّ التفكير بأنّ الجنس ، بهذا المعنى الضيق للكلمة ، يمكن أن يكون دواءً للعصاب . ولقد انساق خطأً جيلٌ بأكمله إلى ردّ مصدر كل المشاكل النفسية إلى الحياة الجنسية ، وكأنّ العلاقات بين الكائنات البشرية مقصورة على عامل بسيط من الإرضاء الجنسي . بيد أن الجنس لا يتظاهر إلا بمثابة الوجه الخارجي لإشكالات أعمق جذراً لدى الفرد ، لمصاعب التملّك ، والانتزاع ،والحسد ، والعداء .

لا يدلّ العصاب على إخفاق في الحياة الجنسية ، بل في الحياة الحبيّة . ومع أن للتحليل النفسي جدارة حقيقية في إزالة الكثير من حالات الكفّ والكبت الجنسية ، إلا أنه أخفق في معالجة مشكلة العاطفة . فحتى بعد التحليل ، بقي كثير من الرجال والنساء عاجزين عن الحب ، وعن بذل الحنان وتلقّيه . إنّ كثيراً من المرضى الذين أتوا إلى المحللين النفسانيين بمشاكل انفعالية متصلة غالباً بحياتهم الجنسية ، تخلّصوا من حالات الكفّ وبلغوا مواقف سوية حيال الجنس ـ لكن كثيراً منهم لم يبلغوا سوى الإطلاق الجنسي الميكانيكي المحض في علاقاتهم الجنسية المتعددة . ولعلهم كانوا يخشون الهلاك ، قبل خضوعهم للتحليل النفساني . ولكن بعد إزالة الكفّ الجنسي ، تبيّن أن قلّة قليلة منهم فقط كانت تخشى حقاً أن يصل الأمر بها إلى هذا الحدّ .

في إحدى مقالات فرويد ثمة مقطع بارز يقول إن مجموعة من العصابيين لا تُتمّ العلاج . وإنهم يفضّلون ، كما يقول فرويد ، « الشفاء بالحب » . وذلك يعني أنهم وقعوا في حبّ أحد ما وما عادوا بحاجة للعلاج التحليلي . ولكن ألم يَقُلْ لنا أنّ العصاب لا ينجم إلا عن الإخفاق في الحياة الجنسية ؟ فإذا كان هذا القول صحيحاً ، فإن عملية الشفاء لا يمكن أن تكتمل إلا حين يتمكن المريض من تأدية وظيفته الجنسية بصورة

سليمة . فكيف يكون الوقوع في الحب علاجاً ، وبديلاً للمعالجة التحليلية النفسية ؟ وهل يتوافق هذا الدواء مع القول ، الذي تكرّر مرة بعد مرة ، إن الجنس والجنس وحده هو الإشكالية في العصاب ؟ لقد تمكّن الساحر العظيم فرويد ، عند مناقشة المنشأ الجنسي للعصاب ، من جعل مشكلة الحب تختفي عن الأنظار . وبينما هو يوضح أن القبعة السوداء العالية هي رمز قضيبي phallic symbol وحسب ، سحب منها فجأة فكرة الحب .

يتحدث المحللون النفسانيون عن الجنسية ـ النفسية psvcho – sexuallity (والتي فيها من المعنى بقدر ما في الإطراح النفسي) ، وعن الحب باعتباره جنساً مكفوف الهدف (والذي هو هراء ، محض وساذج) ، وعن التصعيد (الذي يعجز عنه الدافع الجنسي) ، وهلمجرا . ويزعمون أنهم حين يتحدثون عن الجنس لا يقصدون الحافز الجنسي الخام وحده . ولكن لماذا لا نكون صريحين ؟ إنهم يقصدون الدافع الجنسي ، وليس أي شيء آخر . ونحن كمراقبين نتصرف مثل الطفل الصريح في قصة الأطفال والذي أكّد أن الامبراطور كان عارياً في الحقيقة(*) .

لقد اتّخذت الهوة التي قسمت العالم هيئة الأعضاء التناسلية الأنثوية ، ليس بالنسبة لفرويد ، وإنما بالنسبة لكثير من تلاميذه ، أما الصوى(**) على طريق الشفاء فلها شكل القضيب . إنهم مثل صبيان المدارس المفرطين في نموهم ، لا يرون في العلاقة بين الجنسين سوى الحافز الجنسي الخام . فليعلموا إذاً أنّ هنالك إشكالات أخرى ؛ وأنهم لن يتمكّنوا من الاشاحة عنها بوجوههم إلى الأبد . إنهم مثل الأطفال حين يرسمون صورة جانبية لشخص ، فتراهم يضعون كلتا عينيه في جانب واحد من وجهه .

ومن الضروري هنا إبداء بضعة ملاحظات تتعلّق بمداواة العصاب . وثمة مثل لاتيني قديم يؤكد أنّ ، « **similia similibus curantur** ». فالمرض يُداوى بتلك الوسائل الأكثر ملائمة لطبيعة الشكاية . والمحلل النفساني يتوقع الشفاء لمريضه

---

*)- إشارة إلى قصة « ثياب الامبراطور الجديدة » لهانز كريستيان أندرسن .

**)- جمع صوّة ، وهي المَعْلَم على الطريق .

كنتيجة لانقشاع الكبت الذي يحوْل دون التدفق الحرّ لرغباته الجنسية . ويجادل هذا المحلل : ما دام العصاب ناجماً عن الافتقار للاشباع الجنسي ، فإنّ الهدف لا بد أن يكون إزالة كل العوائق وضروب الكفّ التي تحوْل دونه ، وضمان إمكانية الإرضاء الجنسي الكامل . تلك هي الخطة الوحيدة ، كما يعتقد كثير من المحللين .

ولكن كيف نبلغ هذا الهدف ؟ يقولون : إنّ الطريقة الملائمة هي إحياء reliving تاريخ المريض ؛ سدّ ما في ذكرياته من ثغرات خضعت للقمع والكبت ؛ إعطاء حرية الكلام والتفكير لكل نزوات ونزوعات العدوان ، والغيرة، والدناءة ، إنقاص متطلبات الأنا الأعلى super – ego بالغ القسوة (والذي ندعوه مثال الأنا) ؛ وتقوية الأنا الواهن ،الجبان . ولكن ألا يكافىء هذا الإجراء إزالة الحواجز التي تمنع المريض من أن يحبّ ؟ ألا تعني هذه التسوية مع نزوتيّ العدوان والتملّك الشديدتين أن تحمّل المريض لها وإضعاف شعوره بالإثم سيجعلانه أكثر قدرة على الشعور بالعاطفة والحنان ؟ وأُكرّر ، ما الذي ستقدمه تقوية الأنا للإشباع الجنسي حين لا تفعل سوى تهدئة الدافع الجنسي الخام ؟ إنها لن تنفع أبداً . ألم نَقُل إنّ التطور الانفعالي للحب يعيقه ضعف الثقة بالنفس ، والنفور من الذات ، ومشاعر الإثم والإحساس بانعدام الشأن[1] ؟ والاستنتاج واضح تماماً : ليست المصاعب الجنسية سوى تعبيرات واضحة عن مصاعب أخرى ، عن شرّ خفيّ . إن كون بعض الرجال والنساء عنينين وباردات ، وكونهم منحرفين جنسياً ، ولا يستطيعون أداء وظائفهم الجنسية ،هي مجرد تظاهرات لإخفاقهم وإخفاقهن في محاولة توحيد الجنس ، وشهوة السلطة ، والعاطفة . وإلحاحهم على حاجاتهم الجنسية لا يعني سوى أنهم لا يدركون تلك النواقص الأخرى ، وان صراعهم الانفعالي ، أو كفاحهم العاطفي ، بقي لا واعياً .

ولقد ثبت أن تقصيّ وبحث إشكالية الجنس الفردي لها قيمتها في المداواة التحليلية النفسية ،ذلك أنها تلامس الإشكالية الأكثر عمقاً وأهمية وتحرّض النزوعات اللاواعية . فالصراع بين التملّك ، والجشع ، والعداء والحاجة إلى الحب ينعكس ، على أوضح

(1)ـ انظر كتابي ، نظرات سيكولوجي في الحب ، 1944 .

وجه ، في العلاقة بين الجنسين ، لأن الإخفاق في دمجها لا يُرى في أي مكان آخر أكثر مما في هذه الاضطرابات الجنسية . ولكن ذلك لا يتطابق مع السبب الحقيقي للعصاب إلا بقدر ما يتطابق الظلّ مع الجسم .

إن المداواة التحليلية لا تنجح بحلّها الإشكالات الجنسية للمريض ، وإنما بتعزيزها ثقته بنفسه بحيث يكتسب أو يستعيد قدرته على الحب وعلى تحقيق مطامحه . وسأحاول أن أبيّن ، مستخدماً التشبيه ، الطريقة غير المباشرة التي يقطف بها التحليل النفسي ثمراته العلاجية (وهذه مناهج عَمِلَ التحليل النفسي ـ الجديد على تحسينها) : في الحرب الرهيبة التي نعيشها الآن ، تلقّى عدد من الطيارين أمراً بقصف مستودع للذخيرة أو مصنع للبارود في X . ولكن الطقس السيء لم يُتح لهم رؤية جيدة ، فلم يصيبوا المصنع . ومع ذلك ، انفجر المصنع بعد بضعة دقائق . فكيف أمكن ذلك ؟ لقد أصابت القنابل الخارقة ، رغم أنها أخطأت المصنع ، مباني أخرى في الجوار . وبلغت ألسنة اللهب أطراف المصنع ، وكانت النتيجة أنه انفجر في النهاية . وبالمثل ، فإنّ أثر التقنية التحليلية النفسية في حلّ الاشكالات الجنسية هو غير مباشر . فالرصاصة لا تصيب الدريئة ، اللبّ اللاواعي للعصاب ، وإنما تصيب مكاناً ما في الجوار . إنها لا تصيب الهدف ، بل تستقرّ بقربه . وبالتالي ، فإنها تؤثر ، بصورة لا يمكن تفاديها ، على كل الجملة الانفعالية Emotional system . فهي تنزلق من المحيط الملموس إلى المركز النفسي السريّ . إنّ الحبّ ، وليس الجنس ، هو الاشكالية في العصاب .

نحن نقيس الصحة النفسية لشخص ما تبعاً للمعايير التالية : إلى أي حد هو قادر على الحبّ والعمل ، على بذل الحنان وإنجاز ما يرغب بفعله ؟ ولكلتا المهمتين ، الاجتماعيتين من حيث طبيعتهما ، إنجاز يُعَدُّ بمثابة قاسم مشترك لهما ، فالحبّ أيضاً هو إنجاز شخصي . والهدف هو تحقيق الذات الذي يتخطّى نطاق الأنانية . وإن لم يكن هذا جديراً بالعناء ، فما من شيء جدير إذاً .

وقائع الحياة وحكايا الجنيّات

يُعَدُّ إطلاع الأطفال اليوم على وقائع الحياة بمثابة ضرورة تربوية . ومنافع هذا الحل الجديد لكثير من مصاعب الأطفال الانفعالية هي أوضح بكثير من أن نطريها . ويمكن إبراز فضائل هذا النهج الجديد بمقارنته مع النفاق القديم ، والأكاذيب ، وغموض الأجيال السابقة . ومع ذلك فإنّ هنالك بعض النواقص في النظام الجديد[1] . وسوف أكتفي بالإشارة إلى اثنين منها : الزمن الذي تُعطى فيه هذه المعلومات وعدم اكتمالها . فهي تُعطى متأخرةً على الدوام . بعد أن يكون معظم الأطفال قد اطّلعوا على وقائع الحياة ، وبنوا بأنفسهم بعض النظريات ،خلائط متنافرة من العناصر الحقيقية والزائفة . ويبدو هكذا أنّ التنوير Enlightementليس أول معرفةٍ يتلقّاها الطفل . في فيينا العشرينات عاشت سيدة جاهلة نوعاً ما وأصبحت واحدة من ال Nouveaux Riches(*) ، وشاعت أقوالها الفكهة على الألسنة في المدينة التي يحبّ أبناؤها المزاح . ومرة بينما كانت هذه السيدة تشاهد من مقصورتها في المسرح أول عرض لمسرحية كتبها آرثر شنيتزلر ، سُئلت في فترة الاستراحة كيف وجدت المسرحية ؟ فقالت : « المسرحية جميلة جداً ، لكنها لا تناسب العرض الأول » . وبهذا المعنى فإن إطلاع الأم أطفالها على وقائع الحياة أمر حسن وجدير بالثناء ، لكن تمثيلها لا يناسب العرض الأول . ولست أعرف كيف يمكن للوضع أن يصبح أفضل .

أما النقيصة الأخرى فهي أكثر جدية ، كما يبدو لي . إنَّ الأم أو المدرِّسة لا تطلعان الأطفال على كل وقائع الحياة . إنهما لا تطلعانهم على ما يجعل الرجل وزوجته

---

(1) ـ لستُ متحمساً لقصص العصافير والنحل ولا شك أن منظر الأهل الباردين ،الحياديين أو المرتبكين وهم يحكون عن وقائع الحياة يربك الأطفال .

*) ـ محدثوا النعمة ، بالفرنسية في النص الأصلي .

يتحدان بجسديهما ونفسيهما . وهما تقدّمان معطيات تشريحية أو بيولوجية ، لكن وقائع الحياة ليست فيزيائية وحسب وإنما سيكولوجية أيضاً . وهكذا لا يُقال للطفل ما الذي يعنيه الجنس وما هو الحب . وأنا أفهم جيداً ذاك الصبي الصغير الذي علّق بعد إطلاعه على وقائع الحياة من قِبَلِ صبي آخر : « ربما يفعل أبوك وأمك مثل هذه الوساخات ، لكن أبي وأمي لا يفعلانها أبداً » . فهل تشكّل المعلومات البيولوجية عن الجنس وحدها إعداداً كافياً للصبيان والبنات ؟ ألا يتوجب أيضاً تثقيف المراهقين بشأن الفروق السيكولوجية بين الجنسين ؟ وهل يجب أن يظلّوا جاهلين بالقوى الانفعالية للدوافع الأخرى ا لتي تصوغ حياتهم ؟ ليس ثمة مكان لتعليم هذه الأشياء في مدرستنا . فحصّة البيولوجيا لا تتضمنها ، كماأنّ حصّة السيكولوجيا تستثنيها .

ولكن لنترك للمدرّسين الاهتمام بهذه الاشكاليات (والتي لست كفؤاً لمناقشتها) ، ولنعد إلى الإشكاليات التي يواجهها البالغون . لقد علّمنا الأطباء والسيكولوجيون وقائع الحياة ، كما اطّلعنا عليها عن طريق الكتب ،والمحاضرات ، والندوات . وأصبح العلم بالنسبة لنا المعلم الذي نكون في حضرته كما الأطفال ، نصغي بانتباه ،والرهبة تملؤنا مما يقوله لنا . وفي قسم السيكولوجيا سمعنا الكثير عن اللبيدو ، وعقدة أوديب ، ومكوّنات الجنسية ، وهنا قيلت أشياء كثيرة تتخطّى الحقيقة وأشياء حقيقية كثيرة لم تُقَلْ . وأجزم أنّ كثيراً من النظريات التي تعلّمناها على هذا النحو ليست وقائع ، وإنما هي خرافات خطيرة ، الأمر الذي ينجم عن الإيمان الحرفيّ بها وأخذها كما لو كانت حقائق علمية . الحب باعتباره جنساً مكفوف الهدف ، الطابع الافتراسي للجنسية الطفلية ، شهوة الطفل الجنسية في المصّ ، تطابق منشأ الحنان والشهوة ـ هذه كلها ليست سوى حكايا جنيّات أما النظريات الأخرى فهي خلائط من حكايا الجنّيات والعلم ، أو مبالغات مفرطة في الوقائع الصحيحة . خذوا ، مثلاً ، عملية التصعيد الحقيقية ، والتي تمكّننا من تحويل دوافع الأنا ، الموجّهة إلى إشباع حاجاتنا الأشدّ حيوية ، وجعلها في خدمة مقاصد أخرى أكثر سمواً . في حين يلفّق التحليل النفسي حكاية جنّيات محضة حين يعلّم أنّ الجنس يمكن أن يتصعّد . كما أن حالة أوديبية حقيقية توجد في حياة الطفل ،لكن التحليل النفسي يردّ كل تطور الحضارة

إلى هذا المصدر . وهذا التفسير محض مبالغة مفرطة شأن تلك التي نجدها لدى سويفت في مغامرات جاليفر مع العمالقة(*) . صحيح أن البالغين يبدون للأطفال بمثابة عمالقة ، ولكن ليس هنالك أبداً مثل تلك الهولات Monstersالتي وصفها جاليفر (هل تذكرون أن قسّاً إيرلندياً عاصر سويفت شجب كتاب هذا الأخير لأنه مليء بالأكاذيب غير المعقولة والتي ، من طرفه ، « بالكاد يصدّق كلمة منها » ؟) إنَّ في كتب ومقالات المحللين النفسانيين مئات من القصص ولكن ليس إلا القليل منها محكيّ بذلك النثر المُلهم كما في قصص فرويد ، الذي كان قاصّاً بالفطرة فضلاً عن كونه عبقرياً في العلم . فهو وحده ، بطريقته المُقْنِعة ،استطاع أن يُقنع معظمنا بأنّ الجنس ، الدافع الجنسي الخالص ، هو القوة المفردة الأعظم التي تؤثر في النفس البشرية . وما من أحد غيره جعلنا ننسى أو نتخطّى حقيقة أنّ الحب والجنس مختلفان تماماً ؛ وما من أحد غيره استطاع أن يعمينا عن الدور المهيمن الذي تلعبه دوافع الأنا وما يتحدّر منها في النفس البشرية . وما من عبقرية حقيقية دون خطيئة فادحة . وخطيئة فرويد تدعى نظرية اللبيدو . وكنتيجة لهذه الخطيئة الفاحشة اكتشف فرويد قارّة سيكولوجية جديدة ، مثل كولمبس تماماً ، الذي اكتشف أمريكا ،بينما هو يسعى وراء الهند . ونحن جميعاً كنا في نفس موقع مَنْ رافقوا كولمبس في رحلته ، والذين أخبروا الإسبان عن عجائب العالم الجديد الذي اكتشفه ، هذا العالم الذي ظلّ كولمبس معتقداً أنه الهند ، حتى يوم مماته . لقد عرف عالماً جديداً ، لكنه لم يتحقّق من هويته . أما التأكيدات الصاخبة التي يطلقها المحللون النفسانيون فيمكن مقارنتها بالحكايات عن الطريق البحري الجديد إلى الهند والتي راح يحكيها بحارة كولمبس العائدون .

ليس لدينا اعتراض على حكايا الجنيات إذا ما تمّ تقديمها على ما هي عليه حقاً . وثمة كثير من الحقائق السيكولوجية في كثير من هذه الحكايا ، بل في معظمها ،ولكنها ليست من نوع الحقائق التي يدّعي المحللون النفسانيون اكتشافها . إن حكاية القبلة

---

*) ـ « رحلات جاليفر » ، أربع رحلات خيالية ، هجائية وساخرة كتبها جوناثان سويفت .

التي أيقظت الجمال النائم(*) تمثّل بصورة جميلة الطريقة التي يقع فيها الحب على الفتاة بعد أن قبّلها الرجل المناسب للمرة الأولى . ولا حاجة بنا لأن نعتبر الشفاه أعضاء تناسلية منزاحة كي نصدّق معجزة العاطفة العذرية المنبثقة . كما أن السياج الشائك الذي يحيط بها قد يرمز إلى تحفظها ومقاومتها العذريين ، ولاحاجة بنا للتفكير بغشاء البكارة . ولا شك أن من الممكن إثبات الرمزية الجنسية . لكن المسألة هي فقط ما إذا كانت هذه الرمزية مناسبة ومنطقية في هذه الحالة والحالات المشابهة .

لا شك أيضاً أن حكاية سندريلا تحتوي على رمزية جنسية ، كما في ملاءمة الحذاء لقدم سندريلا ، لكن الشيء الهام الوحيد في الحكاية ، كما فهمتها ، هو أنّ السرد يصوّر القسمة الإنسانية المتعلّقة بالشرعية النموذجية Typical Validity . والأحداث في مثل هذه الحكاية هي بالنسبة للسيكولوجي مرايا تنعكس فيها السيرورات النفسية للشخصيات . أليست سندريلا هي النموذج الأمثل للفتاة التي تقطف النصر عبر الهزيمة ، والتي تدع لأخواتها أن يطأنها متوقعةً أن تنتصر عليهن في النهاية ، والتي تتحمل كل الإذلالات لأنها تعرف أن يوماً سيأتي تذلّ فيه مضطهديها ؟ يبدو لي أن الاهتمام بهذه النقطة هو أكثر قيمة بكثير من التركيز على الرمزية الجنسية في ملاءمة الحذاء لقدم سندريلا ، وهي ، بالطبع ، رمزية لا ننكر شرعيتها . ولا يمكن أن يكون هنالك شك في أن الرمزية الجنسية تتحكّم بميدان واسع من الأفكار اللاواعية ، لكن ال Furor Symbolicus(*) لدى كثير من المحللين النفسانيين هو أمر يدعو إلى الأسف مثل أية خطيئة تعصبية أخرى . إن تصوّر الطائرة باعتبارها رمزاً قضيبياً في المقام الأول وأنها خلف هذا النطاق يمكن أن تُستخدم كآلة للطيران هو تصور فاسد . ومن يقرأ كثيراً من الكتب والمقالات التحليلية يتلقّى انطباعاً بأن مؤلفيها تعلّموا تطبيق التفسير الرمزي بإفراط ولكن من غير حكمة .

ولا شك أن هنالك مادة جنسية لا واعية غزيرة في حكايا الجنيات ، ولكن ليس

(*) ـ إشارة إلى قصة الأطفال الشهيرة ، « الجمال النائم » أو « الأميرة النائمة » .

(*) ـ التعصب للرمزية .

هناك كثير من الجنسية الخام فيها . وهي ، في الواقع ، عادة ما تخلط الجنس مع الحب ، كما يجب أن نتوقع من حكايا جنيات -وليس منها فقط . لكنني أعرف واحدة ، على الأقل ، الجنس فيها منفصل عن العاطفة ، وبصورة بالغة الوضوح . وهي استثناء ، فضلاً عن كونها حكاية للبالغين . وسوف أحكيها لكم لأنها تتعلّق بالفكرة الأساسية لهذا الكتاب . وقد كتب هذه الحكاية بيتر ألتنبرغ ، الكاتب البوهيمي ، الذي عاش في فيينا عند مطلع هذا القرن . وسوف أوجزها مركّزاً على محتواها الأساسي :

كان هنالك ملك وملكة سعيدان في حياتهما الزوجية ، ولكنهما انتظرا طويلاً قبل أن ينعما بولادة طفل . وعندما وُلِدَ هذا الطفل ، أقام الملكان السعيدان احتفالاً عظيماً دعيا إليه كل جنيات المملكة . لكن مصادفة سيئة حالت دون دعوة الجنّية الصغرى (أم أنها تلقّت الدعوة متأخرة ؟) كل واحدة من الجنيات ظهرت في القصر الملكي وانحنت فوق مهد الطفل كي تنعم عليه بهبة ، تكون بمثابة أمنية للمستقبل . واحدة تمنّت أن يصبح قوياً ، وأخرى أن يصبح ذكياً ، وثالثة أن يصبح وسيماً ، وهلمجرا . وأخيراً ، ظهرت الجنية الصغرى أيضاً ، ومن تلقاء نفسها . وانحنت فوق مهد الصغير وقالت : « أمنيتي لك أن لا تكون قادراً على معانقة امرأة إلا حين تحبها » . واختفت في الحال . شبّ الأمير قوياً ، ذكياً ، ووسيماً كما تمنّت له الجنيات . وذات يوم جاء إلى الجنية الصغرى بطلب غريب . قال : « آه ، ياعزيزتي الجنية ، ارفعي عني ليوم واحد ، لمرة واحدة ، هِبَتَكِ المشؤومة التي وهبتني إياها عند مولدي . في كل يوم أرى راعية من نافذة قصري ، إنها ترتدي الأسمال البالية ، وليست جميلة حتى ، بل وأعتقد أنها شرهة وغبية ، لكنني مجنون بها ، وأريدها . فقط هذه المرة . . . . . » . كانت الجنية متأكدة ، وهي المثالية العظيمة ، أن التجربة سوف توقظ الشاب وتخيّب أمله ، فاستجابت لطلبه . وفي صباح اليوم التالي سُمع في قصر الأمير ما يشبه قصف الرعد ، وانشقّ سقف حجرته وظهرت الجنية . خطت نحو سريره وسألته : « والآن ، ياأميري ؟ » فتح الشاب عينيه اللتين يغالبهما النعاس وقال بابتسامة ودودة : « ليس الأمر سيئاً ، ليس سيئاً أبداً . » .

هذه حكاية جنيات حديثة ، وسوف أكون راضياً لو أنها أفادت في تذكير القارىء بالطابع المختلف لكل من الجنس والحب . إنها دواء موثوق ، دون غلاف سكري ، ولعلها تنفع في أن تذكّرنا أن هنالك كثيراً من المتعة في هذا العالم دون أثر للحب .

إن في حكايا الجنيات كثيراً من الكنوز الدفينة تتعدّى سرّ الجنس . وما تخفيه وتكشفه في آنٍ واحد معظم هذه الكنوز ليس واحدة منْ وقائع الحياة وحسب ، بل ومن حقائقها أيضاً .

* الجنس من الاسطورة إلى العلم .
* علم نفس الجنس .
* الحب بين الشهوة والأنا .
* الدافع الجنسي .
* الأمومة والطفولة .
* الاضطرابات الفكية الصدغية والإطباق الوظيفي .
* دليل العائلة الطبي .
* ولد أم بنت ؟ نوع الجنين .
* الإبر الصينية .
* التداوي بوسائل بسيطة .
* موسوعة تفسير الأحلام (3 أجزاء) .
* التخاطر عن بعد والاستبصار .
* التداوي بالتنويم المغناطيسي .
* عالم النوم .